الفصل الثانى

فضل العلم ومنزلة العلماء فى القرآن

- معنى العلم وأقسامه .
- فضل ومنزلة أهله فى القرآن .
- كل الأنبياء آتاهم الله العلم .
- الصلة بين العلم والإيمان .
- العلم سبيل اليقين .
- العلم شرط لكل منصب قيادى .
- ذم كل أمر قام على غير علم .
- العلم المذموم فى القرآن .

فضل العلم ومكانة العلماء فى القرآن

● مادة « ع ل م » فى القرآن :

مَن قرأ القرآن الكريم وجد مادة « ع ل م » تشيع فى سوره المكية والمدنية على سواء ، بكل مشتقاتها اسماً وفعلاً ومصدراً ، مئات المرات .

ففعل « تَعْلَمون » فى خطاب الجمع تكرر ٥٦ مرة ، بالإضافة إلى ٣ مرات بصيغة « فستعلمون » ، و٩ مرات بصيغة « تَعْلَموا » ، و ٨٥ مرة بصيغة « يَعْلَمون » ، و٧ مرات « يعلَموا » ، ونحو ٤٧ مرة تكرر فعل « علم » وما يشتق منه وما يتعلق به .

كما تكررت صفة « عليم » مُعرَّفة ومُنكَّرة (١٤٠) مرة ، وكلمة « عِلْم» مُعرَّفة ومُنكَّرة (٨٠) مرة . وهناك صيغ أُخرى تكررت كثيراً أيضاً .

وكل هذا التكرار لهذه المادة ومشتقاتها دليل مؤكد على فضل العلم وبالغ أهميته فى نظر القرآن الكريم .

وفى هذه الفصل من دراستنا هذه نحاول أن نلقى بعض الضوء على معنى العلم وفضله وأهميته ، ومكانة العلماء ، من خلال آيات القرآن العظيم .

* *

● معنى العلم وأقسامه :

قال الإمام الراغب فى « مفردات القرآن » : « العلم : إدراك الشىء بحقيقته ، وذلك ضربان :

أحدهما : إدراك ذات الشىء (وهو الذى يسميه علماء المنطق : التصور) .

والثانى : الحكم على الشىء بوجود شىء هو موجود له ، أو نفى شىء هو منفى عنه (وهو الذى يسميه المناطقة : التصديق ، فهذا يعنى إدراك النسبة ، وذاك إدراك المفرد) .

قال : فالأول : هو المتعدى إلى مفعول واحد ، نحو : ﴿ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (١) .

والثانى : المتعدى إلى مفعولين ، نحو قوله : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ (٢) .

كما قسم الراغب العلم من وجه آخر إلى ضربين : نظرى وعملى .

فالنظرى : ما لا يتطلب شيئاً أكثر من العلم به ، فإذا علم فقد كمل ، مثل العلم بموجودات العالَم .

والعملى : ما لا يتم إلا بأن يعمل به كالعلم بالعبادات والأخلاقيات ونحوها .

قال : ومن وجه آخر ، ضربان : عقلى ، وسمعى » (٣) .

ويعنى بالعقلى : ما كان طريقه العقل والنظر ، وبالسمعى : ما كان طريقه الوحى والنبوة .

وقال بعض أهل اللُّغة : العلم والمعرفة والشعور كلها بمعنى واحد .

قال الزبيدى فى « تاج العروس » : « والأكثر من المحققين يفرقون بين الكل . والعلم عندهم أعلى الأوصاف ، لأنه الذى أجازوا إطلاقه على الله

---

(١) الأنفال : ٦٠ (٢) الممتحنة : ١٠

(٣) انظر : مفردات القرآن ص ٥٨٠ تحقيق صفوان عدنان داوودى - طبع دار القلم دمشق ، والدار الشامية ، بيروت .

تعالى ، ولم يقولوا : « عارف » - فى الأصح - ولا « شاعر » . والفروق مذكورة فى مصنفات أهل الاشتقاق .

قال : ووقع خلاف طويل الذيل فى « العلم » . حتى قال جماعة : إنه لا يُحَد (أى لا يُعرَّف) لظهوره وكونه من الضروريات . وقيل : لصعوبته وعسره . وقيل غير ذلك ، مما أورده بما له وما عليه الإمام أبو الحسن اليوسى فى « قانون العلوم » ، وأشار فى « الدر المصون » إلى أنه إنما يتعدى بالباء ، لأنه يراعى فيه أحياناً معنى الإحاطة . . قاله شيخنا .

وقال المناوى فى « التوقيف » : العلم هو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع . . أو هو : صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض . . أو هو : حصول صورة الشىء فى العقل .

وفى « البصائر » : المعرفة إدراك الشىء بتفكر وتدبر لأثره ، وهى أخص من العلم ، والفرق بينها وبين العلم من وجوه لفظاً ومعنى .

أما اللَّفظ ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد ، وفعل العلم يقتضى مفعولين ، وإذا وقع على مفعول كان بمعنى المعرفة .

وأما من جهة المعنى فمن وجوه :

أحدها : أن المعرفة تتعلق بذات الشىء ، والعلم يتعلق بأحواله .

والثانى : أن المعرفة - فى الغالب - تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه ، فإذا أدركه قيل : عرفه ، بخلاف العلم ، فالمعرفة تشبه الذكر النفسى ، وهو حضور ما كان غائباً عن الذكر ، ولهذا كان ضدها : الإنكار (ومنه : ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ (١) ، ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ (٢) ، وضد العلم : الجهل .

---

(١) يوسف : ٥٨ (٢) النحل : ٨٣

والثالث : أن المعرفة علم لعَيْن الشيء مفصلاً عما سواه ، بخلاف العلم ، فإنه قد يتعلق بالشيء مجملاً .

قال : وبينهما فروق أُخرى غير ما ذكرنا » (١) .

وقال الراغب فى « المفردات » : « المعرفة والعرفان : إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره ، وهو أخص من العلم ، ويضاده الإنكار ، ويقال : فلان يعرف الله ، ولا يقال : يعلم الله - متعدياً إلى مفعول واحد - لما كان معرفة البَشر لله هى بتدبر آثاره دون إدراك ذاته . ويقال : الله يعلم كذا ، ولا يقال : يعرف كذا ، لما كانت المعرفة تُستعمل فى العلم القاصر المتوصَّل به بتفكر . وأصله من عرفت « الشيء » أى أصبت عَرفه . أى : رائحته . أو من : أصبت عُرفه . أى خَده . يقال : عرفتَ كذا . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ ﴾ (٢) ، ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ (٤) ، ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ » (٥) .

قال : « والعارف فى تعارف قوم (أى فى اصطلاحهم) هو المختص بمعرفة الله ، ومعرفة ملكوته ، وحُسْن معاملته تعالى » .

وأيًّا كان حد « العلم » وتعريفه واختلاف المتخصصين فى ذلك ، وفى تحديد الفرق بينه وبين المعرفة ، فالذى يعنينا منه هنا هو المعنى العام الذى ذكره الإمام الراغب ، وهو : إدراك الشيء بحقيقته ، فكل إدراك وكشف وتبين للمجهول من أى نوع وفى أى مجال ، حتى تتضح حقيقته بالقدر الممكن للإنسان ، فهو داخل فى معنى « العلم » الذى يتحدث عنه القرآن .

* *

---

(١) « تاج العروس للزبيدى - مادة « علم » : ٨/ ٤٠٥

(٢) البقرة : ٨٩ (٣) يوسف : ٥٨

(٤) محمد : ٣٠ (٥) البقرة : ١٤٦

● فضل العلم :

لا يُعرف دين مثل الإسلام ، ولا كتاب غير القرآن ، أشاد بالعلم ، وحثَّ عليه ، ورغَّب فى طلبه ، ونوَّه بمكانة أهله ، وأعلى من قدرهم ، وبيَّن فضل العلم وأثره فى الدنيا والآخرة ، وحضَّ على التعلم والتعليم ، ووضع لذلك كله القواعد الحاكمة ، والأحكام الضابطة ، وذلك فى مصادر الإسلام الأساسية : القرآن الكريم ، والسُّنَّة النبوية .

* *

● دلالة آيات الوحى الأُولى :

وحسبنا أن أول آيات نزلت من الوحى الإلهى على قلب رسول الله ﷺ ، أشارت إلى فضل العلم ، حيث أمرت بالقراءة ، وهى مفتاح العلم ، ونوهَّت بـ « القلم » وهو أداة نقل العلم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

« إن أول سورة أنزلها الله فى كتابه : سورة العَلَق ، فذكر فيها ما مَنَّ به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم ، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علَّمه إياه ، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم . فقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ ، فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم ، وذكر خلقه خصوصاً وعموماً ، فقال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ ، وخصَّ الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه ، وآياته ، الدالة على ربوبيته وقدرته ، وعلمه وحكمته ، وكمال رحمته ، وإنه لا إله غيره ، ولا ربَّ سواه ، وذكر هنا مبدأ خلقه من علق ، لكون العلقة مبدأ الأطوار التى انتقلت إليها النطفة ، فهى مبدأ تعلق التخليق ، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ ، وهو الأفعل من الكرم ، وهو

---

(١) العلق : ١ - ٥

كثرة الخير ، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه ، فإن الخير كله بيديه ، والخير كله منه ، والنعم كلها هو موليها ، والكمال كله والمجد كله له ، فهو الأكرم حقاً ، ثم ذكر تعليمه عموماً وخصوصاً ، فقال : ﴿ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس ، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصاً ، فقال : ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها ، فإن الوجود له مراتب أربعة :

إحداها : مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله ﴿ خَلَقَ ﴾ .

المرتبة الثانية : الذهنية المدلول عليها بقوله : ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

المرتبة الثالثة والرابعة : اللَّفظية والخطية ، فالخطية مصرَّح بها فى قوله : ﴿ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، واللَّفظية من لوازم التعليم بالقلم ، فإن الكتابة فرع النطق ، والنطق فرع التصور .

فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها ، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه ، فهو الخالق المعلِّم ، وكل شىء فى الخارج فبخلقه وُجِد ، وكل علم فى الذهن فبتعليمه حصل . وكل لفظ فى اللِّسان ، أو خط فى البنان ، فبإقداره وخلقه وتعليمه . وهذا من آيات قدرته ، وبراهين حكمته . لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . والمقصود أنه سبحانه تعرَّف إلى عباده بما علَّمهم إياه بحكمته من الخط واللَّفظ والمعنى ، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه بل من أعظمها وأظهرها ، وكفى بها شرفاً وفضلاً له » [1] .

* *

● القَسَم بالقلم :

ومن أوائل ما نزل من القرآن قوله تعالى : ﴿ ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [2] ، فأقسم بالقلم ، والقَسَم به يدل على أهميته ، فإن الله تعالى لا يقسم بشىء إلا ليلفت الأنظار إلى قيمته وخطره .

* *

---

(١) « مفتاح دار السعادة » لابن القيم : ١/٥٨ (٢) القلم : ١

● لا يستوى عالم وجاهل :

وفى القرآن المكى أيضاً يقول تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . . ففرَّق بين أهل العلم ، وأهل الجهل ، فلا يستويان ، بغض النظر عن مضمون العلم ، المهم أنه لا يستوى عالم وجاهل ، كما لا يستوى الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، والأحياء والأموات ، والإنسان والبهيمة ، وأصحاب الجنَّة وأصحاب النار !

* *

● أهل العلم أهل الخشية من الله :

وفى القرآن المكى نقرأ أيضاً : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) بهذه الصيغة الحاصرة التى أفادها كلمة « إنما » بمعنى أنه لا يخشى الله من عباده إلا العلماء الذين عرفوا عظمته ، وقدَّروه حق قدره ، وأهل الخشية هم الذين ذكر الله جزاءهم بقوله : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، رَّضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ (٣) .

وقال ابن مسعود : « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً » !

* *

● شهادة الله والملائكة وأُولى العلم بالتوحيد :

وفى القرآن المدنى نقرأ قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّه لا إِلَه إلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ، لا إِلَهَ إلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤) .

يقول الإمام الغزالى : « فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنَّى

---

(١) الزمر : ٩
(٢) فاطر : ٢٨
(٣) البينة : ٨
(٤) آل عمران : ١٨

بالملائكة ، وثلّث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً ، وجلاءً ونبلاً » (١) .

وقال العلامة ابن القيم معلِّقاً على هذه الآية الكريمة ، وهى قول الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) : « استشهد سبحانه بأُولى العلم على أجل مشهود عليه ، وهو توحيده ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه .

أحدها : استشهادهم دون غيرهم من البَشَر .

والثانى : اقتران شهادتهم بشهادته .

والثالث : اقترانها بشهادة ملائكته .

والرابع : أن فى ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم ، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ، ومنه الأثر المعروف عن النبى ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خَلَف عُدولُه ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » .

الخامس : أنه وصفهم بكونهم أُولى العلم ، وهذا يدل على اختصاصهم به ، وأنهم أهله وأصحابه ، ليس بمستعار لهم .

السادس : أنه سبحانه استشهد بنفسه ، وهو أَجَلُّ شاهد ، ثم بخيار خلقه ، وهم ملائكته والعلماء من عباده ، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً .

السابع : أنه استشهد بهم على أجَلِّ مشهود به وأعظمه وأكبره ، وهو شهادة أنْ لا إله إلا الله . والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم .

---

(١) « إحياء علوم الدين : ١/ ٤ ، ٥ - طبعة دار المعرفة ، بيروت .

(٢) آل عمران : ١٨

الثامن : أنه سبحانه جعل شهادتهم حُجَّة على المنكرين ، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده .

التاسع : أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته ، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته ، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة ، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقاً وتعليماً ، وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً .

العاشر : أنه سبحانه جعلهم مؤدِّين لحقه عند عباده بهذه الشهادة ، فإذا أدَّوها فقد أدَّوا الحق المشهود به ، فثبت الحق المشهود به ، فوجب على الخلق الإقرار به ، وكان ذلك غاية سعادتهم فى معاشهم ومعادهم . وكل مَن ناله الهدى بشهادتهم وأقرَّ بهذا الحق بسبب شهادتهم ، فلهم من الأجر مثل أجره . وهذا فضل عظيم لا يدرى قدره إلا الله ، وكذلك كل مَن شهد بها عن شهادتهم ، فلهم من الأجر مثل أجره أيضاً .

فهذه عشرة أوجه فى هذه الآية »[1] .

* *

● تفضيل آدم على الملائكة بالعلم :

ومما نبَّه عليه القرآن ، ولم يُذكر فى كتاب دينى غيره : أن الله تعالى فضَّل آدم أبا البَشر ، وجعله فى الأرض خليفة ، وقدَّمه على الملائكة المتفرغين لعبادة الله تعالى ، وذلك بما خصَّه به من العلم ، الذى تفوَق به على الملائكة فى الاختبار الذى عقده الله تعالى بينه وبينهم . يقول ابن القيم فى بيان الوجه التاسع والعشرين : « أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل فى الأرض خليفة قالوا له : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : ١/٤٨ ، ٤٩

وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) . . . إلى آخر قصة آدم . وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس فلعنه وأخرجه من السماء » .

قال ابن القيم : « وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه .

أحدها : أنه سبحانه ردَّ على الملائكة لما سألوه كيف يجعل فى الأرض مَن هم أطوع له منه فقال : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأُمور وحقائقها ما لا يعلمونه ، وهو العليم الحكيم ، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورُسله وأنبيائه وصالحى عباده والشهداء والصدِّيقين والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان ، مَن هو خير من الملائكة ، وظهر من إبليس مَن هو شر العالمين ، فأخرج سبحانه هذا وهذا ، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ، ولا بما فى خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة .

الثانى : أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ، ميَّزه عليهم بالعلم ، فعلَّمه الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : ﴿ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . جاء فى التفسير أنهم قالوا : لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا ! فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض ، فلما امتحنهم بعلم ما علَّمه لهذا الخليفة ، أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه . فقالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، فحينئذ أظهر لهم فضل آدم ما خصَّه به من العلم فقال : ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ (٢) أقرُّوا له بالفضل .

الثالث : أنه سبحانه لما أن عرَّفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة

---

(١) البقرة : ٣٠ - ٣٢ (٢) البقرة : ٣٣

ما علمه قال لهم : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (١) ، فعرَّفهم سبحانه نفسه بالعلم ، وأنه أحاط علماً بظاهرهم وباطنهم ، وبغيب السموات والأرض ، فتعرَّف إليهم بصفة العلم ، وعرَّفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم ، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم ، وكفى بهذا شرفاً للعلم .

الرابع : أنه سبحانه جعل فى آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات ، وأراد سبحانه أن يُظهر لملائكته فضله وشرفه ، فأظهر لهم أحسن ما فيه ، وهو علمه ، فدل على أن العلم أشرف ما فى الإنسان ، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم ، ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام ، لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم ، أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير ، فحينئذ قدَّمه ومكَّنه ، وسلَّم إليه خزائن الأرض ، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حُسْن وجهه وجمال صورته ، ولما ظهر له حُسْن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ، ومكَّنه فى الأرض . فدلَّ على أن صورة العلم عند بنى آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة » (٢) .

* *

● كل الأنبياء آتاهم الله العلم :

وفى عدد من قصص الأنبياء والمؤمنين فى القرآن يتبين لنا قيمة العلم وفضله عند الله ، وعند الناس ، وأثره فى الدين وفى الدنيا معاً ، وكل الأنبياء والرُسل فى القرآن آتاهم الله العلم ، وإن رفع الله بعضهم درجات .

* نوح عليه السلام :

فى قصة نوح نراه يجادل قومه بعلم وحُجَّة قوية ، فيفحمهم ، ولا يجدون

---

(١) البقرة : ٣٣ (٢) مفتاح دار السعادة : ١/ ٥٢ ، ٥٣

أمامهم ما يجيبون به ، أو يردون به على حججه ، فماذا كان موقفهم ؟ قالوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرتَ جِدَالَنَا فَأْتنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (١) .

*

* إبراهيم الخليل :

وفى قصة إبراهيم يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِىَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ . . . إلى أن يقول : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

ويحكى القرآن حواره لأبيه ، وقوله له : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ (٣) .

وهذا يدل على أن الجاهل يجب أن يتبع العالم ، فالعالم هو القائد ، والجاهل هو المقود ، ولو كان هو الأكبر سناً ، أو مقاماً ، بل لو كان هو الأب الوالد ، ينبغى أن يتبع ابنه لعلمه .

*

* لوط :

وفى قصة لوط قال تعالى : ﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ (٤) . وقد رأينا ثمار حكمته وعلمه فى حواره مع قومه ، الذى ذُكِرَ فى سورة الشعراء ، وسورة هود ، وغيرهما من السور .

*

---

(١) هود : ٣٢ - ٣٣
(٢) الأنعام : ٧٥ - ٨٣
(٣) مريم : ٤٣
(٤) الأنبياء : ٧٤

* يوسف الصِّدِّيق :

وفى قصة يوسف يقول الله تعالى فى شأنه : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) ، ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (٢) ، وقد بشَّره أبوه من قبل حين قص عليه رؤياه وهو صبى ، فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (٣) .

وقد كان علم التأويل - تأويل الرؤى والأحلام - هو السبب الذى هيأه الله لإنقاذ يوسف من السجن ، وإظهار براءته من كل تهمة ، وتقريب الملك له ، وجعله على خزائن الأرض ، كما طلب يوسف نفسه ، حين قال له الملك : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

فذكر له الصفتين الأساسيتين المطلوبتين من كل مَن يتولى منصباً ذا بال ، إدارياً أو مالياً أو سياسياً ، وهما : الحفظ والعلم ، والحفظ مرده إلى الأمانة ومراقبة الله ، والعلم مرده إلى الخبرة والكفاية فى أداء العمل بإتقان واقتدار .

*

* موسى كليم الله :

رفى قصة موسى يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥) فزاد هنا كلمة « واستوى » ولم يقل ذلك فى شأن يوسف .

يقول ابن القيم فى ذلك : ولما كان الذى آتاه موسى من ذلك أمراً عظيماً ،

---

(١) يوسف : ٢٢ (٢) يوسف : ٢١ (٣) يوسف : ٦

(٤) يوسف : ٥٤ ، ٥٥ (٥) القصص : ١٤

خصَّه به على غيره ، ولا يثبت له إلا الأقوياء أُولو العزم ، هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوى ، يعنى : تم وكملت قوته [١] .

وقد تجلَّى أثر ما آتاه الله من الحكمة والعلم فى كل مراحل حياته ، وكل جوانب حياته عليه السلام .

كما نرى ذلك واضحاً فى حواره مع ربه الجليل سبحانه : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [٢] .

فهو يطيل الجواب مع ربه تلذذاً بحلاوة المناجاة ، ثم يغلبه أدب العبودية فيطوى الكلام ويقول : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ .

ثم يدعو ربه بعد أن أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغية ، دعاءً جامعاً لما يحتاج إليه الداعية فى موقفه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ [٣] .

ونرى ذلك واضحاً فى حواره مع فرعون : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ، لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [٤] .

لما نظر إلى جواب موسى عن ربه عَزَّ وجَلَّ ، كيف وصفه فى هذه الجملة القصيرة بأجلِّ وأدل ما يوصف به الله سبحانه . فهو الذى أعطى كل شىء فى هذا الكون ما به تمام خلقه وكمال وجوده ، ثم أعطاه الهداية التى يصل بها إلى غايته التى خُلق لها . سواء أكان هذا الشىء من عالَم الإنسان أم من عالَم الحيوان أم من عالَم النبات أم من عالَم الجمادات ، وسواء أكان من عالَم الأرض أم من عوالِم الأفلاك ، من العقلاء أم غير العقلاء .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ٥٧

(٢) طه : ١٧ ، ١٨

(٣) طه : ٢٥ - ٣٥

(٤) طه : ٤٩ - ٥٢

ثم انظر جوابه عن القرون الأولى ، فلم يتورط فيما لا سبيل إلى علمه من أنباء القرون الخوالى ، ووكل علمها إلى مَن لا تخفى عليه خافية : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ ، لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (١) .

وفى سورة الشعراء حوار أطول من هذا مع فرعون ، تبين به فضل ما آتاه الله موسى من علم وحكمة : ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

*

*** داود وابنه سليمان :**

وفى قصة داود وابنه سليمان نجد حديثاً عن العلم فى أكثر من موضع . ففى أول قصة داود فى سورة البقرة يقول تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (٣) .

---

(١) طه : ٥٢ (٢) الشعراء : ١٧ - ٣٤ (٣) البقرة : ٢٥١

وفى سورة (ص) يقول تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْد ، إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَاب ﴾ (١) .

وفى سورة الأنبياء يقول تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ (٢) . .

فخصَّ سليمان بفهم القضية ، وإدراك الصواب فيها ، وأثنى على كل منهما بما آتاه الله من حكم وعلم .

وفى سورة النمل يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ، وَقَالا الْحَمْدُ للهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (٣) .

ووراثة سليمان لداود هنا إنما أُريد بها وراثته فى علمه ، فقد جاء فى الحديث : « إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمَن أخذه أخذ بحظ وافر » (٤) .

وفى قصة سليمان نجد أثر العلم مرة أُخرى فى نقل عرش ملكة سبأ من اليمن حيث نقلها إلى الشام حيث يقيم سليمان : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ، وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ (٥) .

---

(١) سورة ص : ١٧ - ٢٠ (٢) الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩ (٣) النمل : ١٥ - ١٦

(٤) جزء من حديث مشهور رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان عن أبى الدرداء ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٦٢٩٧) . (٥) النمل : ٣٨ - ٤٠

وهنا نجد العفريت الجنّى عرض على سليمان أن يأتيه بعرش الملكة قبل أن يقوم من مجلس الحكم ، وعرض ﴿ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ عليه أن يأتيه به قبل أن تغمض عينه ، أى فى لمح البصر ، وكان هذا - كما ذكر القرآن - بوساطة علم عنده من الكتاب ، فلم يوصف بشىء أكثر من هذا ، ولم يذكر لنا القرآن أنه مَلَك أو عفريت ، فدل على أنه إنسىّ ، وأنه بواسطة العلم فاق الجنّى ، فالإنسان بوسائله العلمية يفعل ما لا تفعله الجان ، كما نرى فى عصرنا ، كيف فاق الإنسان بكثير ما صنعه الجنُّ لسليمان : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ (١) .

*

* الخضر صاحب موسى :

وقال تعالى فى شأن الخضر صاحب موسى ، الذى لقيه مع فتاه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ (٢) . فأثنى عليه بما آتاه سبحانه من رحمة من عنده ، وما علّمه من علم من لدنه .

*

* المسيح عيسى ابن مريم :

وقال تعالى فى شأن عيسى : ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلاً ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (٣) . فهذا يقوله تعالى فى معرض الامتنان عليه وتذكيره بنعمه .

---

(١) سبأ : ١٣ (٢) الكهف : ٦٥ (٣) المائدة : ١١٠

وقال فى مقام تبشير أُمه به عند ولادته لتقر به عينها : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإنجِيلَ ﴾ (١) .

*

* محمد خاتم الرُّسُل :

وقال تعالى فى خطاب خاتم رُسُله محمد ﷺ : ﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (٢) .

وقال تعالى له : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (٣) .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٥) .

وفى أربع آيات من كتاب الله (فى البقرة ، وآل عمران ، والجمعة) (٦) بيَّنت أن من وظيفته عليه الصلاة والسلام : تلاوة آيات الله ، وتزكية الأُمة ، وتعليمهم الكتاب والحكمة ، وزادت آية منها : ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٧) .

* *

---

(١) آل عمران : ٤٨ (٢) النساء : ١١٣ (٣) النمل : ٦

(٤) الشورى : ٥٢ (٥) النحل : ٨٩

(٦) البقرة : ١٢٩ ، ١٥١ ، وآل عمران : ١٦٤ ، والجمعة : ٢ (٧) البقرة : ١٥١

• تنويه القرآن بفضائل أُولى العلم :

وينوِّه القرآن بشأن أهل العلم ، ويُعبِّر عنهم بـ ﴿ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ﴾ ويُضفى عليهم جملة من الفضائل والمزايا الفكرية والإيمانية والأخلاقية كانوا وأحق بها وأهلها .

فهؤلاء الذين أُوتوا العلم هم الذين ينكشف لهم الحق الذى أنزله الله على محمد ، فيرونه واضحاً هادياً إلى صراط الله ، يقول تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (١) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ من رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

فهنا نجد العلم أثمر الإيمان ، فأثمر الإيمان الإخبات لله تعالى .

وهؤلاء الذين أُوتوا العلم هم الذين يتجاوبون مع القرآن العظيم ، فتخشع له قلوبهم ، وتدمع له أعينهم ، وتخر له جباههم ، فهم بعلمهم يعرفون قدره ، وينزلونه منزلة من أنفسهم . يقول تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً * قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُواْ ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (٣) .

والقرآن فى صدور هؤلاء من أهل العلم ليس مجرد كلام محفوظ ، بل هو آيات بيِّنات ، دالة أوضح الدلالة على عظمة مَن تكلَّم به ، ودالة كذلك على صدق مَن أُرسِل به ، ودالة كذلك على الحق الذى جاء به ، يقول تعالى

---

(١) سبأ : ٦ (٢) الحج : ٥٤ (٣) الإسراء : ١٠٦ - ١٠٩

لرسوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

وأُولو العلم المحمودون فى القرآن هم الذين لا يخدعهم المظهر عن الجوهر ، ولا الكم عن الكيف ، ولا القشور عن اللُّباب ، ولا المادة عن الروح ، ولهذا نراهم حين خرج قارون ذو الكنوز الطائلة على قومه فى زينته الباهرة ، وموكبه الحافل ، وأبهته الساحرة ، وقال الذين يريدون الحياة الدنيا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ! (٢) كان موقف هؤلاء من أهل العلم الحقيقى موقفاً مخالفاً تماماً ، لم يغرهم هذا البريق ، ولم يطعمهم هذا السراب فيحسبوه ماءً ، بل سجَّل لهم القرآن هذا الموقف الرائع : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ (٣) .

وأُولوا العلم هؤلاء هم الذين قرنهم القرآن بأهل الإيمان ، ورفعهم جميعاً درجات عنده . يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُواْ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٤) .

قيل فى تفسيرها : يرفع الله المؤمن العالِم على المؤمن غير العالِم . ورفعة

---

(١) العنكبوت : ٤٧ - ١٩
(٢) القصص : ٧٩
(٣) القصص : ٨٠
(٤) المجادلة : ١١

الدرجات تدل على الفضل ، إذ المراد به كثرة الثواب عند الله ، وبها ترتفع الدرجات . ورفعتها تشمل الحسية والمعنوية ، فى الدنيا والآخرة . ففى الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت ، وفى الآخرة بعلو المنزلة فى الجنَّة .

وفى صحيح مسلم عن نافع بن عبد الحارث الخزاعى - وكان عامل عمر على مكة - أنه لقيه بعسفان فقال له : مَن استخلفتَ ؟ فقال : استخلفتُ ابن أبزى مولى لنا . فقال عمر : استخلفتَ مولى ؟ قال : إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض . فقال عمر : أما إن نبيكم قد قال : « وإن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ، ويضع به آخرين » (١) .

* *

● العلم حياة ونور :

اعتبر القرآن العلم حياةً ونوراً ، والجهل موتاً وظلمة ، فى آيات كثيرة ، وضرب لذلك الأمثال ، ومن المعلوم : أن الشر كله سببه عدم الحياة والنور ، وأن الخير كله سببه النور والحياة . فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها ، والحياة : هى المصححة لصفات الكمال ، الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال ، كما يقول المحقق ابن القيم ، فكل ما تصرف من الحياة فهو خير كله ، كالحياء الذى سببه كمال حياة القلب ، وضده الوقاحة والفُحش ، وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح ، وكالحياء الذى هو المطر الذى به حياة كل شىء . قال تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (٢) ، كان ميتاً بالجهل قلبه ، فأحياه بالعلم ، وجعل له من الإيمان نوراً يمشى به فى الناس .

---

(١) فتح البارى : ١/ ٤٤١ ، طبعة السلَفية . (٢) الأنعام : ١٢٢

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُواْ اللهَ وآمِنُواْ بِرَسُولِه يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِه وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِه وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيه مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِه مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) . فأخبر أنه روح تحصل به الحياة ، ونور يحصل به الإضاءة والإشراق ، فجمع بين الأصلين : الحياة والنور .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِه اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِه وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِه وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ (٦) .

---

(١) الحديد : ٢٨ ، ٢٩ (٢) البقرة : ٢٥٧ (٣) الشورى : ٥٢
(٤) المائدة : ١٥ ، ١٦ (٥) التغابن : ٨ (٦) النساء : ١٧٤

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ، يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) فضرب سبحانه مثلاً لنوره الذى قذفه فى قلب المؤمن - كما قال أُبَىُّ بن كعب رضى الله عنه - مثل نوره فى قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والإيمان ، الذى أعطاه إياه ، كما قال فى آخر الآية : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ ؛ يعنى نور الإيمان على نور القرآن ، كما قال بعض السَّلَف : يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر ، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور .

وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين ، وهما : الكتاب والإيمان ، فى غير موضع من كتابه ، كقوله : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٤) ، ففضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن . وقوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (٥) ، وقد تقدَّمت هذه الآيات . وقال فى آية النور : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ (٦) ؛ وهو نور الإيمان على نور القرآن . وفى حديث النوَّاس

---

(١) الطلاق : ١٠ ، ١١ (٢) النور : ٣٥ (٣) الشورى : ٥٢
(٤) يونس : ٥٨ (٥) الأنعام : ١٢٢ (٦) النور : ٣٥

ابن سمعان رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « أن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى كتفى الصراط داران لهما أبواب مفتحة ، على الأبواب ستور وداعٍ يدعو على الصراط ، وداع يدعو فوقه : ﴿ وَاللهُ يَدْعُواْ إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) ، والأبواب التى على كتفى الصراط حدود الله ، فلا يقع أحد فى حدود الله حتى يكشف الستر ، والذى يدعو من فوقه واعظ ربه » رواه الترمذى وهذا لفظه . والإمام أحمد ولفظه : « والداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن » ، فذكر الأصلين وهما داعى القرآن وداعى الإيمان .

وقال حذيفة : حدثنا رسول الله ﷺ : « إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من الإيمان ثم علموا من القرآن » .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة ؛ طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ؛ طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ؛ ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ؛ طعمها مُرٌ ولا ريح لها » . . فجعل الناس أربعة أقسام : أهل الإيمان والقرآن وهم خيار الناس . الثانى : أهل الإيمان الذين لا يقرءون القرآن وهم دونهم ، فهؤلاء هم السعداء ، والأشقياء قسمان ، أحدهما : مَن أوتى قرآناً بلا إيمان فهو منافق . والثانى : مَن لا أوتى قرآناً ولا إيماناً .

والمقصود أن القرآن والإيمان هما نور يجعله الله فى قلب مَن يشاء من عباده ، وأنهما أصل كل خير فى الدنيا والآخرة ، وعلمهما أجَلُّ العلوم وأفضلها ، بل لا علم فى الحقيقة ينفع صاحبه إلا علمهما : ﴿ وَاللهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) ، (٣) .

* *

---

(١) يونس : ٢٥

(٢) البقرة : ٢١٣

(٣) مفتاح دار السعادة : ٢/٥٣ - ٥٥

العلم والإيمان

العلم فى نظر القرآن ليس مناقضاً للإيمان ، ولا عدواً له ، بل هو يسير مع الإيمان جنباً إلى جنب ، ولهذا عطف القرآن الإيمان على العلم فى قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢) ، فعطف هنا أهل العلم على أهل الإيمان .

وقد قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ (٣) ، فأمر أن تكون القراءة باسم الله الخالق ، فهى قراءة مؤمنة ، وبتعبير آخر : علم فى حضانة الإيمان .

بل يرى القرآن أن العلم دليل الإيمان ، فهو يهدى إليه ويدل عليه ، فالإنسان فى القرآن يعلم فيؤمن ، أى يقتنع عقله ، فيؤمن قلبه ، يقول تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٤) .

هكذا رتَّب القرآن هذه الثلاثة - العلم ، الإيمان ، الإخبات - حين عطفها بعضها على بعض بحرف « الفاء » التى تفيد الترتيب والتعقيب ، كما يقول علماء العربية . فالمرء - بعقله وفكره - يعلم أن القرآن هو الحق المنزَّل من عند الله ، فيترتب على هذا العلم أن يؤمن به ، ويترتب على هذا الإيمان أن يخبت له قلبه . فالمعرفة تسبق الشعور ، والشعور يسبق الحركة ، سواء أكانت حركة القلب أم حركة الجسم .

* *

---

(١) الروم : ٥٦ (٢) المجادلة : ١١

(٣) العلق : ١ (٤) الحج : ٥٤

● العلم الحقيقى يهدى إلى الإيمان :

العلم الحقيقى فى نظر القرآن يدفع إلى الإيمان ، ويشد أزره ، يقول تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (١) .

ويقول تعالى عن القرآن : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُواْ ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (٢) .

* *

● العلم عندنا دين ، والدين عندنا علم :

فليس بين العلم والإيمان - أو بين العلم والدين - صراع ، كالذى عرفته أوروبا فيما سمى عندهم « القرون الوسطى » ، وإنما هنا إخاء بينهما ، فالعلم يؤيد الإيمان ، والإيمان يبارك العلم ، فإن الحق لا يناقض الحق . وكما أقول أبداً : إن العلم عندنا دين ، والدين عندنا علم .

أما أن العلم عندنا دين ، فإن كتاب ربنا ، وسُنَّة نبينا ، يدعواننا إلى العلم ، ويعتبرانه عبادة وفريضة ، سواء أكان علم دين أم علم دنيا ، علماً مصدره الوحى ، أم علماً مصدره الكون ، فالوحى أمر الله ، والكون خلق الله ، ولا تعارض بين خلقه وأمره سبحانه : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وأما أن الدين عندنا علم ، فلأنه لا يقوم على التقليد واتباع الأجداد والآباء ، أو السادة والكبراء ، بل يحارب القرآن - بأبلغ الأساليب - التقليد الأعمى والتبعية المطلقة للآخرين ، وينادى كل ذى عقيدة أن يبنى عقيدته على البرهان

---

(١) سبأ : ٦ (٢) الإسراء : ١٠٦ - ١٠٩ (٣) الأعراف : ٥٤

واليقين ، لا على الظن والتخمين : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) ، ﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٤) .

والعلم المقترن بالإيمان يبنى ولا يهدم - ويُحيى ولا يُميت ، ولهذا نجد سليمان عليه السلام حين جىء إليه بعرش ملكة سبأ - عن طريق العلم - قبل أن يرتد إليه طرفه ، لم يقل ما قال الإنسان المغرور : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى ﴾ (٥) ، أو إنما جاءنى به علمائى وخبرائى ، بل قال ما ذكره القرآن : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٦) .

ومثل ذلك : موقف ذى القرنين ، حين بنى سدَّه العظيم مستعيناً بالله أولاً ، ثم بقوة الشعب ثانياً ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ (٧) ، فلما استكمل البناء ، قال بتواضع المؤمنين : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً ﴾ (٨) .

وهذا بخلاف العلم الذى وصل إليه الغرب اليوم ، فهو - لانقطاع صلته بالإيمان - غدا معول هدم ، وأداة تهديد للبَشرية .

صحيح أن الإنسان استطاع بوساطة العلم أن يصعد إلى القمر ، ويجلب منه أتربة وصخوراً وآثاراً ، يحلِّلها ويدرسها ، ولكنه رغم ذلك لم يستطع أن يوفر لنفسه السعادة والسكينة على ظهر الأرض .

* *

---

(١) البقرة : ١١١ (٢) الأنبياء : ٢٤ (٣) الأنعام : ١٤٣
(٤) الأنعام : ١٤٨ (٥) القصص : ٧٨ (٦) النمل : ٤٠
(٧) الكهف : ٩٥ (٨) الكهف : ٩٨

● أثر العلم فى الاهتداء والفضيلة :

وإذا كان شأن العلم أنه يهدى إلى الإيمان ، ويرشد إلى الحق ، ويدل على الصراط المستقيم ، كما ذكر القرآن الكريم عن ﴿ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ﴾ فى أكثر من آية من آياته ، فلماذا نرى من الناس مَن يعرف الحق ولا يتبعه ؟ ومَن يعرف الإيمان ولكنه لا يؤمن ، ولا ينضم إلى قافلة المؤمنين ؟ .

تُرى ما الموانع التى تمنع بعض الناس أن يؤمنوا بعد ما علموا ، وأن يسيروا فى رَكب الحق بعد ما انكشف عنه قناعه ، وأضاء لهم نوره وشعاعه ؟

* *

● اختلاف سقراط وأرسطو :

هنا نذكر ما اختلف فيه الفلاسفة الكبار قديماً ، مثل سقراط وأرسطو . .

فسقراط يرى أن الفضيلة هى « المعرفة » ، فإذا عرف الإنسان الفضيلة معرفة راسخة ، اقتنع بها عقله ، واطمأن إليها قلبه ، فإنه لا بد أن يتمسك بها . وإلا كان الخلل فى معرفته ، لا بد أنها معرفة سطحية ، لم تتغلغل فى عقله ، إذ لا يُتصور من العاقل أن يتأكد أن النار تحرق ، ثم يُقدم عليها .

وأرسطو يخالف أُستاذه - أو أُستاذ أُستاذه - سقراط ، ويقول : إن المعرفة وحدها لا تؤدى إلى الفضيلة ، فكم من أُناس يعرفون الفضيلة ويعملون عكسها ، تدفعهم إلى ذلك غرائزهم وشهواتهم ، أو إلفهم وعوائدهم ، أو نحو ذلك ، مما يدل على أهمية عنصر « الإرادة » بجوار عنصر « المعرفة » .

* *

● اختلاف علماء الإسلام فى القضية :

والعجيب أن هذه القضية اختلف فيها أيضاً علماء الإسلام ، وعرض لها الإمام ابن القيم بتفصيل وسعة فى كتابه « مفتاح دار السعادة ، ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة » وكتب فيها نحو عشرين صفحة .

ومما قاله هناك : « وهنا اختُلف فى مسألة عظيمة ، وهى : أن العلم هل يستلزم الاهتداء ، ولا يتخلف عنه الهدى ، إلا لعدم العلم أو نقصه ؟ وإلا فمع المعرفة الجازمة لا يُتصور الضلال ، أو أنه لا يستلزم الهدى ، فقد يكون الرجل عالماً ، وهو ضال على عمد ؟ هذا مما اختلف فيه المتكلمون ، وأرباب السلوك ، وغيرهم .

*** القول الأول : « العلم يستلزم الهداية » :**

« فقالت فرقة : مَن عرف الحق معرفة لا يشك فيها استحال أن لا يهتدى ، وحيث ضل فلنقصان علمه .

احتجاجات هذا الفريق :

« واحتجوا من النصوص بقوله تعالى : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (١) ، فشهد تعالى لكل راسخ فى العلم بالإيمان .

وبقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) .

وبقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ (٣) .

وبقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ ﴾ (٤) .

وبقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ (٥) . . قسم الناس قسمين :

أحدهما : العلماء بأن ما أُنزل إليه من ربه هو الحق .

والثانى : العُمْىُ ، فدل على أنه لا واسطة بينهما .

وبقوله تعالى فى وصف الكفار : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) النساء : ١٦٢ (٢) فاطر : ٢٨ (٣) سبأ : ٦

(٤) آل عمران : ١٨ (٥) الرعد : ١٩ (٦) البقرة : ١٧١

وبقوله : ﴿ وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وبقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (٢) . . وهذه مدارك العلم الثلاث قد سُدَّت عليهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

وهذا فى القرآن كثير مما يبين فيه منافاة الضلال للعلم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (٤) .

فلو كانوا علموا ما قال الرسول لم يسألوا أهل العلم : ماذا قال ؟ ولما كان مطبوعاً على قلوبهم .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَاتِ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ (٦) ، فهذه شهادة من الله تعالى لأُولى العلم بالإيمان به وبكلامه .

وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٧) ، فدلَّ على أن أهل الضلال لا سمع لهم ولا عقل .

وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا

---

(١) التوبة : ٩٣ (٢) البقرة : ٧ (٣) الجاثية : ٢٣
(٤) محمد : ١٦ (٥) الأنعام : ٣٩ (٦) الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨
(٧) الملك : ١٠

إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (١) ، أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إلَّا العالمون ، والكفار لا يدخلون فى مسمى العالمين فهم لا يعقلونها .

وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) ، ولو كان الضلال يجامع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالاً من الذين يعلمون ، والنص بخلافه .

والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار ، فتارة يصفهم بأنهم « لا يعلمون » ، وتارة بأنهم « لا يعقلون » ، وتارة بأنهم « لا يشعرون » ، وتارة بأنهم « لا يفقهون » ، وتارة بأنهم « لا يسمعون » . والمراد بالسمع المنفى سمع الفهم ، وهو سمع القلب لا إدراك الصوت ، وتارة بأنهم « لا يبصرون » ، فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل ، مناف للعلم لا يجامعه ، ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنهم « جاهلون » ، كقوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلَاماً ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ ﴾ (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٧) .

---

(١) العنكبوت : ٤٣ (٢) الروم : ٢٩ (٣) البقرة : ١١٨
(٤) الزمر : ٩ (٥) الفرقان : ٦٣ (٦) القصص : ٥٥
(٧) الأعراف : ١٩٩

وقال النبى ﷺ لما بلغ قومه من أذاه ذلك المبلغ : « اللَّهُمَّ اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

وفى الصحيحين عنه : « مَن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » ، فدل على أن الفقه مستلزم لإرادة الله الخير فى العبد . . . .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : كفى بخشية الله علماً ، وبالاغترار بالله جهلاً .

قالوا : فهذا القرآن والسُّنَّة وإطلاق السَّلَف من الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة مستلزم للهداية ، وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم .

قالوا : ويدل عليه أن الإنسان ما دام عقله معه لا يؤثر هلاك نفسه على نجاتها وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم ، والحس شاهد بذلك . ولهذا وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (١) . قال سفيان الثورى : كل مَن عمل ذنباً من خلق الله فهو جاهل ، كان جاهلاً أو عالماً ، إن كان عالماً فمَن أجهل منه ؟ وإن كان لا يعلم فمثل ذلك .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ذنب المؤمن جهل منه . قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل شىء عُصِىَ الله فيه فهو جهالة . وقال السدى : كل مَن عصى الله فهو جاهل .

قالوا : ويدل على صحة هذا : أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد ، فإنه لو رأى صبياً يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة ، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ، ورؤيته له ، وعقابه

---

(١) النساء : ١٧

على الذنب ، وتحريمه له ، وسوء عاقبته ؟ فلا بد من غفلة القلب على هذا العلم ، وغيبته عنه . فحينئذ يكون وقوعه فى المعصية صادراً عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم ، والذنب محفوف بجهلين : جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه ، وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه ، وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة ، فما عُصِىَ الله إلّا بالجهل ، وما أُطِيعَ إلّا بالعلم ، فهذا بعض ما احتجَّت به هذه الطائفة .

*

*** القول الآخر : « العلم لا يستلزم الهداية » :**

« وقالت الطائفة الأُخرى : العلم لا يستلزم الهداية ، وكثيراً ما يكون الضلال عن عمد وعلم لا يشك صاحبه فيه ، بل يؤثر الضلال والكفر ، وهو عالم بقبحه ومفسدته .

أدلة هذا الفريق :

« قالوا : وهذا شيخ الضلال ، وداعى الكفر ، وإمام الفَجَرة ، إبليس عدو الله ، قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه ، فخالفه وعاند الأمر ، وباء بلعنة الله وعذابه الدائم ، مع علمه بذلك ومعرفته به ، وأقسم له بعزَّته أنه يغوى خلقه أجمعين ، إلا عباده منهم المخلصين ، فكان غير شاك فى الله ، وفى وحدانيته ، وفى البعث الآخر ، وفى الجنَّة والنار ، ومع ذلك اختار الخلود فى النار واحتمال لعنة الله وغضبه وطرده من سمائه وجنَّته ، عن علم بذلك ومعرفة لم يحصل لكثير من الناس . ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١) ، وهذا اعتراف منه بالبعث وإقرار به ، وقد علم قَسَم ربه ليملأنَّ جهنم منه ومن أتباعه . فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل .

وقال تعالى إخباراً عن قوم ثمود : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ

---

(١) الحجر : ٣٦

الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ (١) ، يعنى بيَّنا لهم وعرَّفناهم فعرفوا الحق وتيقنوه وآثروا العمى عليه ، فكان كفر هؤلاء عن جهل .

وقال تعالى حاكياً عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّى لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ (٢) ، أى هالكاً - على قراءة مَن فتح التاء وهى قراءة الجمهور ، وضمها الكسائى وحده . وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى ، وبها تقوم الدلالة ، ويتم الإلزام ، بتحقق كفر فرعون وعناده . ويشهد لها قوله تعالى إخباراً عنه وعن قومه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣) ، فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين - وهو أقوى العلم - ظلماً منهم وعُلُواً لا جهلاً .

وقال تعالى لرسوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٤) ، يعنى أنهم قد عرفوا صدقك وأنك غير كاذب فيما تقول ، ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة ، قاله ابن عباس رضى الله عنهما والمفسِّرون . قال قتادة : يعلمون أنك رسول ولكن يجحدون . قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦) ، يعنى تكفرون بالقرآن وبمن جاء به وأنتم تشهدون بصحته وبأنه الحق ، فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود لا عن جهل وخفاء .

وقال تعالى عن السحرة من اليهود : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ

---

(١) فصلت : ١٧ (٢) الإسراء : ١٠٢ (٣) النمل : ١٣ ، ١٤
(٤) الأنعام : ٣٣ (٥) النمل : ١٤ (٦) آل عمران : ٧٠ ، ٧١

فى الآخرة من خلاق ﴾ (١) ، أى علموا مَن أخذ السحر وقبله لا نصيب له فى الآخرة ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (٢) ، ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب فى القبْلة كما فى سورة البقرة ، وفى التوحيد كقوله فى الأنعام : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ، قُل لَّا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (٣) ، وفى الكتاب أنه منزّل من عند الله لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥) . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هم قريظة والنضير ومَن دان بدينهم ، كفروا بالنبى ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به ، وشهدوا له بالنبوة . وإنما كفروا بغياً وحسداً . قال الزجَّاج : أعلم الله عزَّ وجلَّ أنه لا جهة لهدايتهم ؛ لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم ، لأنهم كفروا بعد البيِّنات . ومعنى « كيف يهديهم » : أى أنه لا يهديهم ، لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه ، وكفروا عمداً ، فمن أين تأتيهم الهداية ؟ فإن الذى تُرتجى هدايته مَن كان ضالاً ولا يدرى أنه ضال ، بل يظن أنه على هدى ، فإذا عرف الهدى اهتدى . وأما مَن عرف الحق وتيقنه ، وشهد به قلبه ، ثم اختار الكفر والضلال عليه ، فكيف يهدى الله مثل هذا ؟

وقال تعالى عن اليهود : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٦) ، ثم قال : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (٧) . قال

---

(١) البقرة : ١٠٢ (٢) البقرة : ١٤٦ (٣) الأنعام : ١٩ ، ٢٠

(٤) الأنعام : ١١٤ (٥) آل عمران : ٨٦ (٦) البقرة : ٨٩

(٧) البقرة : ٩٠

ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكن كفرهم شكاً ولا اشتباهاً ، ولكن بغياً منهم حيث صارت النبوة فى ولد إسماعيل .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عند الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ الله وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، فلما شبههم فى فعلهم هذا بمن لا يعلم ، دلَّ على أنهم نبذوه عن علم ، كفعل مَن لا يعلم . تقول إذا خاطبت مَن عصاك عمداً : كأنك لم تعلم ما فعلت ، أو كأنك لم تعلم بنهيى إياك .

وقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ (٢) . قالوا : فهل بعد هذه الآية بيان ؟ فإن هذا آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وآثر الضلال والغى ، وقصته معروفة حتى قيل إنه كان أُوتى الاسم الأعظم ، ومع هذا فلم ينفعه علمه ، وكان من الغاوين ، فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه فى حق هذا .

وقال تعالى : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (٣) . . . . .

قالوا : ويكفى فى هذا إخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب ، ووردوا القيامة ، ورأوا ما أخبرت به الرُّسُل : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٤) ، فأى علم أبين من علم مَن ورد القيامة ، ورأى ما فيها وذاق عذاب الآخرة ؟ ثم لو رُدَّ إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه ؟

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا

---

(١) البقرة : ١٠١ (٢) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦
(٣) العنكبوت : ٣٨ (٤) الأنعام : ٢٧ ، ٢٨

عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (١) ، فهل بعد نزول الملائكة عَياناً ، وتكليم الموتى لهم ، وشهادتهم للرسول بالصدق ، وحشر كل شيء في الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى ؟ ومع هذا فلا يؤمنون ، ولا ينقادون للحق ، ولا يصدقون الرسول !

ومَن نظر في سيرة رسول الله ﷺ مع قومه ، ومع اليهود ، علم أنهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ ، لا يشكون أنه صادق في قوله إنه رسول الله ، ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان . قال المسور بن مخرمة رضي الله عنه لأبي جهل وكان خاله : أيْ خال ؛ هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته التي قالها ؟ قال أبو جهل لعنه الله تعالى : يا ابن أخي ؛ والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يُدْعى الأمين ، ما جربنا عليه كذباً قط ، فلما وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله ! قال : يا خال ؛ فلِمَ لا تتبعونه ؟ قال : يا ابن أخي ؛ تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ، فأطعموا وأطعمنا ، وسقوا وسقينا ، وأجاروا وأجرنا ، فلما تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسَيْ رهان ، قالوا : منا نبي ، فمتى نُدرك هذه ؟

وهذا أُمية بن أبي الصلت كان ينتظره يوماً بيوم ، وعلمه عنده قبل مبعثه ، وقصته مع أبي سفيان لما سافرا معاً معروفة ، وإخباره برسول الله ﷺ ، ثم لما تيَّقنه وعرف صدقه قال : لا أُومن بنبي من غير ثقيف أبداً .

وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله ﷺ ، ولم يشك فيه ، وآثر الضلال والكفر استبقاءً لملكه .

ولما سأله اليهود عن التسع آيات البيِّنات فأخبرهم بها قَبَّلوا يده ، وقالوا : نشهد أنك نبي . قال : فما يمنعكم أن تتبعوني ؟ قالوا : إن داود عليه السلام دعا أن لا يزال في ذُرِّيته نبي ، وإنَّا نخشى إن اتبعناك أن تقتلنا يهود !

فهؤلاء قد تحققوا نبوته وشهدوا له بها ، ومع هذا فآثروا الكفر والضلال .

* *

---

(١) الأنعام : ١١١

● **أقسام الكفر** :

« قالوا : وقد بيَّن القرآن أن الكفر أقسام :

أحدها : كفر صادر عن جهل وضلال ، وتقليد الأسلاف ، وهو كفر أكثر الأتباع والعوام .

والثانى : كفر جحود وعناد وقصد مخالفة الحق ، ككفر مَن تقدَّم ذكره ، وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية فى قومه من الكفار ، أو رياسة سلطانية ، أو مَن له مأكل وأموال فى قومه ، فيخاف هذا على رياسته ، وهذا على ماله ومأكله ، فيؤثر الكفر على الإيمان عمداً .

الثالث : كفر إعراض محض ، لا ينظر فيما جاء به الرسول ، ولا يحبه ولا يبغضه ، ولا يواليه ولا يعاديه ، بل هو مُعْرِض عن متابعته ومعاداته .

وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونهما ولا يثبتون من الكفر إلا الأول ، ويجعلون الثانى والثالث كفراً لدلالته على الأول ، لا لأنه فى ذاته كفر ، فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل !

ومَن تأمل القرآن والسُّنَّة وسير الأنبياء فى أُممهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم ، جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه ، وعلم أن عامة كفر الأُمم عن تيقن وعلم ، ومعرفة بصدق أنبيائهم ، وصحة دعواهم وما جاؤا به . وهذا القرآن مملوء من الأخبار عن المشركين عُبَّاد الأصنام أنهم كانوا يقرون بالله ، وأنه هو وحده ربهم وخالقهم ، وأن الأرض وما فيها له وحده ، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وأنه بيده ملكوت كل شىء ، وهو يُجير ولا يُجار عليه ، وأنه هو الذى سخَّر الشمس والقمر ، وأنزل المطر ، وأخرج النبات . والقرآن مناد عليهم بذلك ، محتج بما أقروا به من ذلك على صحة ما دعتهم إليه رسله . فكيف يقال : إن القوم لم يكونوا مقرِّين قط بأن لهم رباً وخالقاً ، وهذا بهتان عظيم ، فالكفر أمر وراء مجرد الجهل ، بل الكفر الأغلظ هو ما أنكره هؤلاء ، وزعموا أنه ليس بكفر .

قالوا : والقلب عليه واجبان لا يصير مؤمناً إلا بهما جميعاً : واجب المعرفة والعلم ، وواجب الحب والانقياد والاستسلام . فكما لا يكون مؤمناً إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد لا يكون مؤمناً إذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام . بل إذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفراً ، وأبعد عن الإيمان من الكافر جهلاً . فإن الجاهل إذا عرف وعلم فهو قريب إلى الانقياد والاتباع . وأما المعاند فلا دواء فيه . قال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

قالوا : فحب الله ورسوله ، بل كون الله ورسوله أحب إلى العبد من سواهما : لا يكون العبد مسلماً إلا به . ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم ، فما كل مَن عرف الرسول أحبه كما تقدم .

قالوا : وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته ، والسعى فى أذاه بكل ممكن ، مع علمه بفضله وعلمه ، وأنه لا شىء فيه يوجب عداوته إلا محاسنه وفضائله . ولهذا قيل : الحاسد عدو للنعم والمكارم ! فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضله وكماله ، وإنما حمله على ذلك فساد قصده وإرادته ، كما هى حال الرُّسُل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرُّسُل ووارثوهم رئاستهم الباطلة ، فعادوهم وصدُّوا النفوس عن متابعتهم ، ظناً أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها . وسُنَّة الله فى هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ، ويصغرهم فى عيون الخلق ، مقابلة لهم بنقيض قصدهم ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (٢) .

* *

(١) آل عمران : ٨٦ (٢) فصلت : ٤٦

● **حكم ابن القيم بين الفريقين :**

« فهذا موارد احتجاج الفريقين ، وموقف أقدام الطائفتين ، فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة ، وتوخ بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة ، فقد أدلى كل منهما بحجج لا تُعارَض ولا تُمانَع ، وجاء ببيِّنات لا تُرَد ولا تُدَافع ، فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب ، وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب ، فيرضى الطائفتين ، ويزول به الاختلاف من البين ؟ وإلا فخلِّ المطى وحاديهَا ، وأعط القَوْس باريهَا :

دع الهـــوى لأناس يُعرفـــون به قد كابدوا الحب حتى لان أصعبه !

ومَن عرف قدره ، وعرف لذى الفضل فضله ، فقد قرع باب التوفيق ، والله الفتَّاح العليم ، فنقول وبالله التوفيق :

كِلَا الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم ، ولا عدلت عن سنن الحق ، وإنما الاختلاف والتباين بينهما من **عدم التوارد على محل واحد** ، ومن إطلاق **ألفاظ مجملة** بتفصيل معانيها يزول الاختلاف ، ويظهر أن كل طائفة موافقة الأخرى على نفس قولها .

وبيان هذا : أن المقتضى قسمان :

مقتضٍ لا يتخلف عنه موجَبه ومقتضاه ، لقصوره فى نفسه ، بل يستلزمه استلزام العِلَّة التامة لمعلولها .

ومقتضٍ غير تام يتخلف عنه مقتضاه لقصوره فى نفسه عن التمام ، أو لفوات شرط اقتضائه ، أو قيام مانع منع تأثيره .

فإن أريد بكون العلم مقتضياً للاهتداء : الاقتضاء التام الذى لا يتخلَّف عنه أثره ، بل يلزمه الاهتداء بالفعل ، فالصواب قول الطائفة الثانية ، وأنه لا يلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب .

وإن أريد بكونه موجباً : أنه صالح للاهتداء مقتض له ، وقد يتخلَّف عنه

مقتضاه لقصوره ، أو فوات شرط ، أو قيام مانع ، فالصواب قول الطائفة الأولى .

* *

● **موانع الاهتداء إلى الحق :**

« وتفصيل هذه الجملة : أن العلم بكون الشيء سبباً لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلّف عنه عمله بمقتضاه ، لأسباب عديدة :

السبب الأول : ضعف معرفته بذلك .

السبب الثانى : عدم الأهلية . وقد تكون معرفته به تامة ، لكن يكون مشروطاً بزكاة المحل وقبوله للتزكية ، فإذا كان المحل غير زكى ولا قابل للتزكية ، كان كالأرض الصلدة التى لا يخالطها الماء ، فإنه يمتنع النبات منها ، لعدم أهليتها وقبولها ، فإذا كان القلب قاسياً حجرياً لا يقبل تزكية ولا تؤثر فيه النصائح ، لم ينتفع بكل علم يعلمه ، كما لا تنبت الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر ، وبُذرَ فيها كل بذر كما قال تعالى فى هذا الصنف من الناس : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) . . . وهذا فى القرآن كثير .

فإذا كان القلب قاسياً غليظاً جافياً ، لا يعمل فيه العلم شيئاً ، وكذلك إذا كان مريضاً مهيناً مائياً لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم .

السبب الثالث : قيام مانع ، وهو : إما حسد ، أو كِبْر . وذلك مانع

---

(١) يونس : ٩٦ ، ٩٧ (٢) الأنعام : ١١١ (٣) يونس : ١٠١

إبليس من الانقياد للأمر ، وهو داء الأوَّلين والآخرين ، إلا مَن عصم الله . . وبه تخلَّف الإيمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحة نبوته ، ومَن جرى مجراهم ، وهو الذى منع عبد الله بن أُبَىّ من الإيمان ، وبه تخلَّف الإيمان عن أبى جهل وسائر المشركين ، فإنهم لم يكونوا يرتابون فى صدقه ، وأن الحق معه ، لكن حملهم الكِبْر والحسد على الكفر ، وبه تخلَّف الإيمان عن أمية (ابن أبى الصلت) وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة محمد ﷺ .

السبب الرابع : مانع الرياسة والمُلْك ، وإن لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق ، لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد ومُلكه ورياسته ، فيضن بمُلكه ورياسته كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار ، الذين علموا نبوته وصدقه ، وأقروا بها باطناً ، وأحبوا الدخول فى دينه ، لكن خافوا على مُلكهم . وهذا داء أرباب المُلك والولاية والرياسة ، وقَلَّ مَن نجا منه إلا مَن عصم الله ، وهو داء فرعون وقومه . ولهذا قالوا : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (١) ، أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهارون وينقادوا لهما ، وبنو إسرائيل عبيد لهم . ولهذا قيل : إن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره . فقال : بيّنا أنت إله تُعبَد ، تصير عَبداً تَعبُد غيرك ! فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال .

السبب الخامس : مانع الشهوة والمال ، وهو الذى منع كثيراً من أهل الكتاب من الإيمان ، خوفاً من بطلان مأكلهم ، وأموالهم التى تصير إليهم من قومهم ، وقد كانت كفار قريش يصدُّون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته ، فيدخلون عليه منها . فكانوا يقولون لمن يحب الزنا : إن محمداً يُحرِّم الزنا ويُحرِّم الخمر ، وبه صدُّوا الأعشى الشاعر عن الإسلام ، وقد فاوضتُ غير واحد من أهل الكتاب فى الإسلام وصحته ، فكان آخرَ ما كلمنى به أحدهم :

---

(١) المؤمنون : ٤٧

أنا لا أترك الخمر وأشربها آمناً ، فإذا أسلمتُ حِلْتم بينى وبينها ، وجلدتمونى على شربها ! وقال آخر منهم بعد أن عرف ما قلت له : لى أقارب أرباب أموال ، وإنى إن أسلمتُ لم يصل إلىَّ منها شىء ، وأنا أؤمل أن أرثهم ، أو كما قال .

ولا ريب أن هذا القدر فى نفوس خلق كثير من الكفار ، فتتفق قوة داعى الشهوة والمال ، وضعف داعى الإيمان ، فيجيب داعى الشهوة والمال ، ويقول : لا أرغب بنفسى عن آبائى وسَلَفى .

السبب السادس : محبة الأهل والأقارب والعشيرة ، يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم ، وأخرجوه من بين أظهرهم . وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم .

السبب السابع : محبة الدار والوطن ، وإن لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب ، لكن يرى أن فى متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغُرْبة والنوى ، فيضن بوطنه .

السبب الثامن : تخيل أن فى الإسلام ومتابعة الرسول إزراءً وطعناً منه على آبائه وأجداده ، وذماً لهم ، وهذا هو الذى منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام . . . .

السبب التاسع : متابعة مَن يعاديه من الناس للرسول ، وسبقه إلى الدخول فى دينه ، وتخصصه وقربه منه ، وهذا القدر منع كثيراً من اتباع الهدى ، يكون للرجل عدو ويبغض مكانه ، ولا يحب أرضاً يمشى عليها ، ويقصد مخالفته ومناقضته ، فيراه قد اتبع الحق ، فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق وأهله ، وإن كان لا عداوة بينه وبينهم ، وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار ، فإنهم كانوا أعداءهم وكانوا يتواعدونهم بخروج النبى ﷺ ، وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه ، فلما بدرهم إليه الأنصار وأسلموا ، حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم .

السبب العاشر : مانع الألف والعادة والمنشأ ؛ فإن العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ، ولهذا قيل : هى طبيعة ثانية . فيربَّى الرجل على المقالة ، وينشأ عليها صغيراً ، فيتربى قلبه ونفسه عليها ، كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ، ولا يعقل نفسه إلا عليها ، ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد إزالتها وإخراجها من قلبه ، وأن يسكن موضعها ، فيعسر عليه الانتقال ، ويصعب عليه الزوال .

وهذا السبب ، وإن كان أضعف الأسباب معنى ، فهو أغلبها على الأُمم ، وأرباب المقالات والنِحَل ليس مع أكثرهم بل جميعهم - إلا ما عسى أن يشذ - إلا عادة ومَرْبىً تربى عليه طفلاً ، لا يعرف غيرها ، ولا يحسن به ، فدين العوائد هو الغالب على أكثر الناس ، فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية ، فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورُسُله خصوصاً على خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ ، كيف غيَّروا عوائد الأُمم الباطلة ، ونقلوهم إلى الإيمان حتى استحدثوا به طبيعة ثانية ، خرجوا بها عن عادتهم وطبيعتهم الفاسدة ، ولا يعلم مشقة هذا على النفوس ، إلا مَن زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقالته إلى الحق ، فجزى الله المرسلين أفضل ما جزى به أحداً من العالمين »[1] .

* * *

(١) مفتاح دار السعادة : ١/٨٨ - ٩٨

العلم سبيل اليقين

وكما أن العلم - كما يصوِّره القرآن - دليل الإيمان ، فهو كذلك سبيل اليقين ، وهو - كما قال الراغب - سكون الفهم مع ثبات الحكم . وهو من صفة العلم ، فوق المعرفة والدراية وأخواتها . يقال : علم يقين ، ولا يقال : معرفة يقين .

وهو يقابل الظن والشك . قال فى الصحاح : اليقين : العلم وزوال الشك . ولهذا قال تعالى فى خطاب المشركين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ (١) .

وفى شأن الذين زعموا قتل عيسى : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ﴾ (٢) .

واليقين بالله تعالى وآياته ولقائه هو ما يسعى إليه كل مؤمن ، ويحرص على تحقيقه ، ليجد فيه ثلَج صدره ، وطمأنينة قلبه ، وسكينة نفسه ، وإنما يصل إلى هذه المرتبة بالعلم ورسوخه ، الذى يطرد الجهل والظن والشك .

يقول تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) .

﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) الجاثية : ٣٢ (٢) النساء : ١٥٧ (٣) البقرة : ١١٨

(٤) الجاثية : ٤ (٥) الجاثية : ٢٠ (٦) الرعد : ٢

(٧) الذاريات : ٢٠ ، ٢١

ومدح الله خليله إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِيٓ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (١) .

كما مدح الله تعالى المتقين والمؤمنين والمحسنين بأنهم من أهل اليقين بالآخرة ، فقال تعالى فى مطلع سورة البقرة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وكذلك وصف المؤمنين فى مطلع سورة النمل ، والمحسنين فى مطلع سورة لقمان ، فكلهم : ﴿ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٣) .

وجعل القرآن اليقين مع الصبر ، جناحين يطير بهما الإنسان إلى مقام الإمامة فى الدين ، يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ، وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٤) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « بالصبر واليقين تُنال الإمامة فى الدين » .

ومن المعلوم أن الشيطان يحارب الإنسان المؤمن بجندين رئيسين : جند الشهوات ، وجند الشبهات . فهو بالشهوات يفسد سلوكه وعمله ، وبالشبهات يفسد اعتقاده وفكره . والمؤمن يقاوم هذا الغزو الشيطانى بسلاحين أساسيين : سلاح الصبر ليهزم به الشهوات ، وسلاح اليقين ليهزم به الشبهات .

وقد أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر والثبات ، ونهاه أن يستخفه الذين لا يوقنون بالله ولا بالآخرة ، فيستعجل فيما تنبغى فيه الأناة ، أو يغضب حيث ينبغى الرضا ، أو يقتحم حيث ينبغى التثبت ، فقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) الأنعام : ٧٥ (٢) البقرة : ٢ - ٥ (٣) النمل : ٣ ، ولقمان : ٤
(٤) السجدة : ٢٤ (٥) الروم : ٦٠

ومن علامات الساعة الكبرى التى تنبئ بأن الكون يوشك أن تنقض خيامه ، وينفرط نظامه : خروج دابة الأرض ، التى تخاطب الناس ، وتعلمهم بانعدام اليقين بآيات الله ، كما قال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

قال ابن القيم : « واليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، وبه تفاضل العارفون ، وفيه تنافس المتنافسون ، وإليه شمر العاملون ، وعمل القوم إنما كان عليه ، وإشاراتهم كلها إليه . . . وهو روح أعمال القلوب ، التى هى أرواح أعمال الجوارح ، وهو حقيقة الصِّدِّيقية ، وهو قطب هذا الشأن الذى عليه مداره » (٢) .

قال ابن القيم : « لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يُثمر اليقين الذى هو أعظم حياة القلب ، وبه طمأنينته ، وقوته ، ونشاطه وسائر لوازم الحياة ، ولهذا مدح الله سبحانه أهله فى كتابه وأثنى عليهم بقوله : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٣) ، وقوله فى حق خليله إبراهيم : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِيٓ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٤) . وذمَّ مَن لا يقين عنده فقال : ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٥) . وفى الحديث المرفوع من حديث سفيان الثورى عن سليمان التيمى عن خيثمة عن عبد الله ابن مسعود يرفعه : « لا تَرضِينَّ أحداً بسخط الله ، ولا تَحْمَدَنَّ أحداً على فضله ، ولا تَذُمَّنَّ أحداً على ما لم يؤتك الله ، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهية كاره ، وإن الله - بعدله وقسطه - جعل

---

(١) النمل : ٨٢

(٢) مدارج السالكين : ٢/ ٣٩٧ - طبعة السُّنَّة المحمدية - مصر .

(٣) البقرة : ٤ (٤) الأنعام : ٧٥ (٥) النمل : ٨٢

الرَّوْح والراحة والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » ، فإذا باشر القلب اليقين امتلأ نوراً ، وانتفى عنه كل ريب وشك ، وعوفى من أمراضه القاتلة ، وامتلأ شكراً لله ، وذكراً له ، ومحبة وخوفاً ، فحيىَ عن بيِّنة .

واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان ، وعليهما ينبنى ، وبهما قوامه ، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية ، وعنهما تصدر ، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال ، وبقوتهما قوتها . وجميع منازل السائرين ، ومقامات العارفين ، إنما تفتح بهما ، وهما يثمران كل عمل صالح ، وعلم نافع ، وهدىً مستقيم .

قال شيخ العارفين الجنيد : اليقين هو استقرار العلم ، الذى لا ينقلب ، ولا يتحول ، ولا يتغير فى القلب .

وقال سهل : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين ، وفيه سكون إلى غير الله .

وقيل : من علاماته : الالتفات إلى الله فى كل نازلة ، والرجوع إليه فى كل أمر ، والاستعانة به فى كل حال ، وإرادة وجهه بكل حركة وسكون .

وقال السرى : اليقين السكون عند جولان الموارد فى صدرك ، لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضياً .

قلت : هذا إذا لم تكن الحركة مأموراً بها ، فإذا كانت مأموراً بها ، فاليقين فى بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع .

وقيل : إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة والمحنة منحة . فالعلم أول درجات اليقين . ولهذا قيل : العلم يستعملك واليقين يحملك .

فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده ، ولا تثبت قدم الرضا إلا على درجة اليقين .

قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَن يُؤْمِن

بالله يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [1] . قال ابن مسعود : هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله ، فيرضى ويسلِّم . فلهذا لم يحصل له هداية القلب ، والرضا والتسليم ، إلا بيقينه » [2] .

* *

● درجات اليقين :

واليقين - كما ذكره القرآن - درجات ثلاث :

أُولاها : علم اليقين . وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ [3] .

وثانيتها : عَيْن اليقين ، وإليها يشير قوله تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [4] .

وثالثتها - وهى الأعلى والأخيرة : حق اليقين . وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [5] .

وقال عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [6] .

* درجة علم اليقين :

فأما « علم اليقين » فهو العلم الراسخ الجازم ، الذى لا يخالج القلب فيه شبهة ، ولا شك ، ولا تناسٍ ولا غفلة عنه . فكل عقيدة تواردت عليها الأدلة ، وتكاثرت الآيات البيِّنات على صدقها وصحتها ، حتى صدَّق بها العقل ، واطمأن بها القلب ، وسكنت إليها النفس ، وانتفت عنها كل الظنون والشكوك والشبهات ، فهذا العلم أو هذا الإيمان بها ، أو هذا العلم

---

(١) التغابن : ١١ (٢) مفتاح دار السعادة : ١/ ١٥٤ ، ١٥٥
(٣) التكاثر : ٥ (٤) التكاثر : ٦ ، ٧
(٥) الواقعة : ٩٥ (٦) الحاقة : ٥١

المؤمن أو الإيمان العالِم ، هو علم اليقين ، الذى مدح الله به عباده المتقين فى كتابه ، وإن كانت مراتبه تتفاوت ، وهو يزداد ويقوى بالأسباب والبراهين والطاعات ، التى تزيده قوة على قوة . كما قال أحد السَّلَف - وهو عامر ابن عبد قيس - : لو كُشِفَ الغطاء ما ازددتُ يقيناً !

وقال بعضهم : رأيتُ الجنَّة والنار حقيقة . قيل له : وكيف ؟ قال : رأيتهما بعينى رسول الله ﷺ . ورؤيتى لهما بعينيه آثر عندى من رؤيتى لهما بعينىّ ، فإن بصرى قد يطغى ويزيغ ، بخلاف بصره صلى الله عليه وسلم (١) .

*

* درجة عَيْن اليقين :

وأما درجة « عَيْن اليقين » فهى أعلى وأرفع . والفرق بينها وبين « علم اليقين » كالفرق بين المعاينة والخبر الصادق . والشاعر يقول :

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما قد حدَّثوك ؟ فما راءٍ كمن سمعا !

وفى الحديث : « ليس الخبر كالمعاينة » (٢) .

وهى الدرجة التى طلبها خليل الله إبراهيم عليه السلام من ربه ، حين قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن ، قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً ، واعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣) .

وهى التى رقى الله عَزَّ وجَلَّ إليها خاتم رسله ، وصفوة خلقه محمداً ﷺ ، ليلة الإسراء والمعراج ، ليرى من آيات ربه الكبرى ، ويشاهد من عوالِم

---

(١) انظر : مدارج السالكين : ٢/ ٤٠٠

(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط والحاكم عن ابن عباس ، والطبرانى فى الأوسط عن أنس ، والخطيب عن أبى هريرة ، كما فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٥٣٧٤) ، (٥٣٧٣) .

(٣) البقرة : ٢٦٠

الغيب عَياناً ما لم يشهده غيره ، ورأى جبريل على صورته المَلَكية الحقيقية ، كما قال تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ (١) .

*

*** درجة حق اليقين :**

وأما « حق اليقين » فهى درجة فوق « علم اليقين » ، و« عَيْن اليقين » .

فإذا كان « علم اليقين » للخبر الصادق ، و« عَيْن اليقين » للمشاهدة والعيان ، فإن « حق اليقين » أشبه باللَّمس والذَوْق .

وقد مثَّلوا المراتب الثلاث بمن أخبرك أن عنده عسلاً طبيعياً مصفىً حلو المذاق ، صفته كذا وكذا . وأنت لا تشك فى صدقه . . ثم أراك إياه ، فازددتَ يقيناً ، ثم قدَّمه إليك فذقته وأكلت منه .

فالأول : « علم اليقين » . والثانى : « عَيْن اليقين » . والثالث : « حق اليقين » .

قال ابن القيم : « فعلمنا بالجنَّة والنار : علم يقين ، فإذا أُزلفت الجنَّة - فى الموقف - للمتقين ، وشاهدها الخلائق ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وعاينها الخلائق ، فذلك عَيْن اليقين . فإذا أُدخل أهل الجنَّة الجنَّة ، وأهل النار النار ، فذلك حق اليقين » (٢) .

* * *

(١) النجم : ١١ - ١٨

(٢) مدارج السالكين : ٢/ ٤٠٣

العلم شرط فى كل منصب قيادى

ومن فضل العلم الذى أشار إليه القرآن : أنه اعتبر « العلم » مؤهلاً لا بد منه ، لكل منصب قيادى فى المجتمع ، فلا يجوز أن يقود الأُمة جُهَّالها ، إنما يقودها علماؤها . والأمة التى توسد مناصبها القيادية إلى الجهلة إنما تحفر رمسها بخمسها ، لأنهم لا يسوقونها إلا إلى الضلال والوبال . وقد قال الشاعر :

إذا كان الغراب دليل قوم سيهديهم إلى جيف الكلاب !

قالوا : إن بشار بن برد الشاعر المعروف - وقد كان مكفوف البصر - سأله أحد المبصرين يوماً عن طريق أو مكان ، فقال : تعال أدلك عليه ، ثم أنشأ يقول ساخراً :

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكمو ! قد ضلَّ من كانت العميان تهديه !

لهذا نجد القرآن يذكر العلم مرشحاً لمنصب الخلافة فى الأرض فى قصة آدم ، كما ذكرنا من قبل : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (١) . . . . الآيات .

ووجدنا فى قصة طالوت كيف كان العلم أحد مؤهلاته الأساسية للقيادة العسكرية ، نقرأ ذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ . . . . إلى أن قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً ، قَالُواْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ، قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ (٢) .

فهؤلاء القوم من بنى إسرائيل هم الذين قالوا لنبيهم : ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ ، أى هم الذين طلبوا ذلك ورغبوا فيه ، فلما حقق الله لهم

---

(١) البقرة : ٣١ وما بعدها . (٢) البقرة : ٢٤٦ - ٢٤٧

ما طلبوا وعيَّن لهم نبيهم الملك المنشود بوحى من الله ، ظهرت طبيعتهم النكدة المعاندة ، وقالوا معترضين : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ ، لأننا نملك المال الكثير وهو لم يُؤت إلا القليل ؟ كأن المناصبَ الكبيرة فى الأُمة لمن يملك الدرهم والدينار ، لا لمن يملك البصيرة والاعتبار ، وكأن الفقراء يجب أن يُحرموا من كل مزية ، ولو كانوا من ذَوى المواهب والمَلَكات !

وهنا كان رد نبيهم : ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ . و« العلم » هنا يدخل فيه - بصفة أوَّلية - العلم بالشؤون العسكرية التى تتطلبها إدارة المعارك ، كما أن « البسطة فى الجسم » مطلوبة هنا أيضاً ، حتى يكون فى مقدمة رجاله وجنوده ، تحملاً لأعباء الحرب ، وصبراً على لأوائها ، ويكون منظره نفسه مهيباً ومرهباً لأعدائه .

ذكر البقاعى فى تفسير : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ ﴾ : « أى الذى تحصل به المكنة فى التدبير والنفاذ فى كل أمر ، وهو يدل على اشتراط العلم فى الملك وفى تقديم العلم على الجسم دليل على أن الفضائل النفسانية أشرف من الجسمانية وغيرها »[1] .

ووجدنا فى قصة يوسف الصِّدِّيق عليه السلام كيف جعل العلم أحد وصفين رئيسين يؤهلانه للمنصب الذى طلبه من الملك ، بعد أن ظهرت براءته ، وعلت درجته ، وظهر علمه فى تأويل رؤيا الملك بما لم يكن فى الحسبان : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[2] .

فحين أفصح الملك عن منزلة يوسف لديه ، وأنه ﴿ مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ رأى يوسف أن واجبه أن يتولى مسؤولية إدارة الأزمة التى أشار إليها فى تعبير الحلم

---

(١) نظم الدرر ، للبقاعى : ٣/٤١٨ (٢) يوسف : ٥٤ ، ٥٥

الملكى : أزمة المجاعة التى تطوّق البلاد ، والسنين الخصبة والسنين العجاف ، وليس هناك أولى منه بتولى أمرها ، وقيادة سفينتها .

وفى هذا دليل على جواز طلب المنصب إذا تعين الطالب للقيام به ، لأن الفرار منه فى ذلك الحين فرار من المعركة ، وهرب من الواجب الذى لا يؤديه غيره .

لهذا قال يوسف : ﴿ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وخزائن الأرض فى ذلك الوقت تشمل ما يتعلق بالمالية والاقتصاد والزراعة والتموين والتخطيط .

وعبارة : ﴿ حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ تعنى صفتين لا غِنَى عنهما فى أى منصب : فالحفظ يعنى « الأمانة » التى بها تُحفظ الحقوق والأموال وتُصان ولا تُنهب ولا تُسرق ، ولا تعرض للضياع .

والعلم يعنى « الخبرة » والكفاية فيما يُسند إليه ، بحيث يستطيع أن يعرف مداخل الأمر ومخارجه ، ولا يكون مجرد أداة فى يد غيره من العارفين والخبراء .

وهاتان الصفتان اللّتان ذكرهما يوسف عليه السلام هنا ، شبيهتان بالصفتين اللّتين ذكرتهما بعد ذلك ابنة الشيخ الكبير من أهل مَدْيَن فى قصة موسى عليه السلام ، بعد أن سقى لها ولأختها غنمهما ، وأرسلها أبوها فى طلبه ، فقالت إحداهما : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَئْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَئْجَرْتَ الْقَوِىُّ الأَمِينُ ﴾ (١) .

فصفة « القوى » هنا مقابل صفة « العليم » فى قول يوسف ، وصفة « الأمين » مقابل صفة « الحفيظ » فى قوله عليه السلام .

ولا بد من الصفتين معاً ، كما وضح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » .

* * *

---

(١) القصص : ٢٦

ذم كل أمر قام على غير علم

ومن فضل العلم فى القرآن : أنه أنكر أبلغ الإنكار ، وذمَّ أشد الذم : كل أمر من قول أو عمل ، قام على غير علم .

● **الجدال بغير علم :**

من ذلك : الجدال بغير علم ، وخصوصاً فى شأن العقيدة فى الله . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ (١) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٢) .

ويبدو من السياق هنا : أن العلم فى الآية هو العلم العقلى بدليل عطف الهدى والكتاب المنير عليه . والعطف يقتضى المغايرة ، فليس عند هؤلاء المجادلين فى الله علم من عقل ، ولا دليل من نقل .

ونظير هذا قوله تعالى فى محاجة اليهود والنصارى فى شأن إبراهيم عليه السلام ، وادعاء اليهود أنه كان يهودياً ، والنصارى أنه كان نصرانياً : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) .

* *

---

(١) الحج : ٣ (٢) الحج : ٨ ، ولقمان : ٢٠

(٣) آل عمران : ٦٥ - ٦٧

● الخوض فى الأعراض بغير علم :

ومن ذلك : الخوض فى أعراض الناس بغير علم ، وإطلاق الألسنة كأنها أنياب أو مخالب تنهش فى حرمات المؤمنين والمؤمنات بغير بيِّنة ، كما وقع فى حديث الإفك ، وتناول عرض أُم المؤمنين ، الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشة رضى الله عنها ، ورجل فاضل من أصحاب النبى ﷺ ، من ألسنة السوء . يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

* *

● دعوى الجبرية بغير علم :

ومن ذلك : دعوى « الجبرية » ومضمونها أنَّ ما هم فيه من شرك وضلال ليس من سوء اختيارهم وصنيع أيديهم ، بل هو مما شاء الله لهم ، يعنون المشيئة الملجئة المجبرة ، التى لا تدع لهم حرية الإرادة ، ولا قابلية الاختيار . وفى هذا يقول القرآن عن الأصنام والآلهة المزعومة لهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة أُخرى يقول تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٣) .

* *

---

(١) النور : ١٤ ، ١٥ (٢) الزخرف : ٢٠ (٣) الأنعام : ١٤٨

● دعوى التحريم والتحليل بغير علم :

ومن ذلك : دعوى التحريم والتحليل بغير علم ولا سلطان من الله تعالى ، الذى له وحده حق التحليل والتحريم الدينى لعباده ، فليس من شأن بَشَر أن يُحرِّم أو يُحلِّل ما شاء له هواه ، تحريماً وتحليلاً له الديمومة والصفة الدينية المطلقة . يقول تعالى معقباً على ما حَرَّم المشركون من الضأن والمعز : ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) . ثم يناقشهم هذه المناقشة نفسها فى شأن الإبل والبقر ، ثم يقول : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ممَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

ويقول تعالى عن ضلال العرب فى الجاهلية ، وكيف أحلَّوا الحرام المحض ، وحرَّموا الحلال الصِرْف ، سفهاً بغير علم ، وافتراءً على الله بغير حق : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ ، قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (٣) .

وقد بيَّن القرآن قبل ذلك كيف زيَّن لهم شياطينهم قتل أولادهم وفلذات أكبادهم ، فقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ (٤) .

وهذا كله منشؤه اتباع الهوى ، وترك العلم ، ولهذا قال تعالى فى هذه السورة نفسها ، سورة الأنعام : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ (٥) .

وهذا الإضلال لغيرهم إنما يتم بعد أن ضلُّوا فى أنفسهم بغير علم أيضاً ،

---

(١) الأنعام : ١٤٣ (٢) الأنعام : ١٤٤ (٣) الأنعام : ١٤٠
(٤) الأنعام : ١٣٧ (٥) الأنعام : ١١٩

كما قال تعالى فى سورة أُخرى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ ﴾ (١) .

* *

● **الشرك ضلال بغير علم :**

وما ذكرناه عن التحريم والتحليل بغير إذن من الله ، إنما هو فرع من أصل كبير هو الشرك بالله تعالى ، الذى هو جرثومة كل شر ، وأصل كل انحراف وفساد فى الفكر أو فى السلوك . وهذا الشرك إنما هو - فى حقيقته - قول أو اعتقاد بغير علم . كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ، وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٣) .

وقد بيَّن القرآن فى مواضع شتَّى أن الشرك لا يقوم على أى أساس من علم أو سلطان ، ويعنى بالسلطان : الحُجَّة والبرهان . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ (٥) .

وقال على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِى أَدْعُوكُمْ إِلَى

---

(١) الروم : ٢٩ (٢) الحج : ٧١ (٣) الأنعام : ١٠٠
(٤) الأعراف : ٣٣ (٥) لقمان : ١٥

النَّجَاة وَتَدْعُونَنِى إِلَى النَّار * تَدْعُونَنِى لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

وقال فى شأن المشركين والنصارى الذين قالوا : اتخذ الله ولداً - المشركون جعلوا الملائكة بنات الله سبحانه ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، واليهود قالوا : عُزَير ابن الله - فقال تبارك وتعالى فى شأن الجميع : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً * مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ (٣) .

* *

● الإضلال عن سبيل الله بغير علم :

ومن ذلك : الإضلال عن سبيل الله بغير علم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ، أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (٤) .

ولقد بيَّن القرآن أن هؤلاء المُضلِّين يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة ، كما يحملون جزءاً من أوزار الذين ضلّوا بسببهم . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (٥) .

* *

---

(١) غافر : ٤١ ، ٤٢ (٢) المؤمنون : ١١٧ (٣) الكهف : ٤ ، ٥
(٤) لقمان : ٦ (٥) النحل : ٢٤ ، ٢٥

● **ذم الجهالة والجاهلين :**

وإذا كان القرآن قد نوَّه أبلغ التنويه بالعلم والعلماء ، فإنه فى المقابل قد ذمَّ أبلغ الذم الجهالة والجاهلين .

*** ذم الجاهلية :**

ومن ذلك : ذم القرآن للجاهلية ، فاشتقاقها من هذه المادة « ج هـ ل » وقد ذمَّها القرآن الكريم فى أربعة مواضع :

ذم جاهلية العقيدة فى قوله تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (١) .

وذم جاهلية السلوك فى مجال الأُسرة فى قوله : ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾ (٢) .

وذم جاهلية الأخلاق فى مجال المجتمع فى قوله : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (٣) .

وذم جاهلية الحكم والسياسة فى قوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) .

*

*** الإعراض عن الجاهلين :**

ومن توجيهات القرآن المتكررة : الإعراض عن الجاهلين ، والترفع عن مقابلة جهلهم بمثله ، فهم أهون من أن يضيع العقلاء الوقت والجهد معهم .

---

(١) آل عمران : ١٥٤ (٢) الأحزاب : ٣٣

(٣) الفتح : ٢٦ (٤) المائدة : ٥٠

يقول تعالى لرسوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

وقال عَزَّ وجَلَّ فى وصف عباد الرحمن : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلَاماً ﴾ (٢) .

وقال فى وصف بعض عباده المؤمنين من أهل الكتاب : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) .

* *

● من مظاهر الجهل فى القرآن :

والجهل الذى ذمَّه القرآن له مظاهر شتَّى :

* الهزل فى موضع الجد :

منها : الهزل فى موضع الجد .

وهذا ما نلمسه فى قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام مع قومه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ، قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ، قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤) .

فقد اتهمه بنو إسرائيل بأنه يمزح ويهزل ، وهو يتحدث عن الله تعالى وعن أمره لهم ، بهذه الصيغة المؤكدة : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ ، فكان رد موسى رداً حاسماً يدل على أن مثل هذا لا يصدر إلا عن جاهل لا يعرف مقام ربه ، ولا يقدِّره حق قدره . وهو يعوذ بالله أن يكون كذلك .

*

---

(١) الأعراف : ١٩٩ (٢) الفرقان : ٦٣

(٣) القصص : ٥٥ (٤) البقرة : ٦٧

* تغليب العاطفة على العقل :

ومنها : تغليب العاطفة على مقتضى العقل والحكمة .

وهذا ما نجده فى طلب نوح عليه السلام الشفاعة فى ابنه الذى كفر به وخالفه ، وأوى إلى جبل ظن أنه يعصمه من الماء ، فلم يعصمه شىء من أمر الله ، وابتلعه الموج وكان من المغرقين . غلبت عاطفة الأُبوة على نوح ، وما كان ينبغى لها أن تغلب ، فكان ما حكاه القرآن : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

وهكذا كان الرد الإلهى على شيخ الأنبياء شديداً ، فلم يسامحه ربه فى هذا الطلب ، وبيَّن له أن نسب العقيدة فوق نسب الدم ، وأن هذا الولد الكافر العاق ليس من أهله وإن كان من صلبه ، وقال له بصريح العبارة : ﴿ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

*

* الجمود على الأفكار الضالة والسلوك المنحرف :

ومن أبرز مظاهر الجهل : الجمود على العقائد الباطلة ، والأفكار الضالة ، والسلوك المنحرف ، وسد الآذان عن سماع دعوة الحق التى يجىء بها رُسُل الله .

نقرأ فى قصة نوح عليه السلام حين طلبوا إليه أن يطرد الفقراء من أتباعه ، الذين يستنكفون أن يكونوا مثلهم فى المنزلة : رد نوح عليهم بقوله :

---

(١) هود : ٤٥ - ٤٧

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ ، إِنَّهُم مُّلاقُواْ رَبِّهِمْ وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ (١) ، وإنما تتمثل جهالتهم فى النظر إلى الناس من خلال ما يملكون من مال ، لا ما يملكون من قيم وأخلاق !

ونقرأ فى قصة لوط مع قومه الذين شذوا عن الفطرة ، وأتوا الذكران من العالمين ، وتركوا ما خلق لهم ربهم من الأزواج قوله فى الإنكار عليهم : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (٢) ، وأى جهالة أكبر من هذه الجهالة التى جعلت هؤلاء يدعون الطهارة ، ويغرقون فى القذارة ، ويتهكمون بلوط ومن معه : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٣) .

ونقرأ فى قصة هود مع قومه حين قالوا له : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ (٤) .

وإنما جهالتهم فى استعجالهم عذاب الله الذى توعَّدهم رسولهم به ، وكان أولى بهم أن ينظروا فى رسالته بتأمل وإنصاف ، وقد بيَّن أنه لهم ناصح أمين ، وأنه لا يبغى منهم مالاً ولا أجراً ، إن أجره إلا على الله .

وفى قصة موسى عليه السلام لم يكد ينجو هو وقومه من فرعون وملئه وجنوده ، حتى سأله قومه من بنى إسرائيل سؤالاً غريباً ، لا يدل على شىء إلا على استحكام الجهل لدى سائله ، يقول تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ، قَالُواْ يَا مُوسَى

---

(١) هود : ٢٩
(٢) النمل : ٥٥
(٣) النمل : ٥٦
(٤) الأحقاف : ٢٢ ، ٢٣

اجْعَل لَّنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وأى جهل أعظم من نسيان فضل الله عليهم ، الذى أنجاهم من جبروت فرعون ، وسؤالهم أن يجعل لهم إلهاً أو صنماً غير الله تعالى يعبدونه ، كما يفعل أُولئك القوم الوثنيون ؟؟ وأقدامهم لم تكد تجف من البحر الذى خرجوا منه .

وفى حديث القرآن عن المشركين الذين بُعث إليهم محمد ﷺ ، وتعنتهم فى طلب الخوارق ، وعجائب الآيات ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (٢) .

* *

● معصية الله من دلائل الجهل ولوازمه :

ومما أرشد إليه القرآن : أن معصية الله تعالى من دلائل الجهل ولوازمه التى لا تنفك عنه ، ولا ينفك عنها ، فكل مَن عصى الله تعالى بمخالفة أمره ، أو ارتكاب نهيه ، فهو لا محالة جاهل : جَهِلَ مقام ربه ، وجَهِلَ قيمة نفسه ، وجَهِلَ أمر آخرته ، وآثر اللَّذة العاجلة على المثوبة الآجلة ، وقدَّم حظ النفس على حق الرب ، وغلَّب باعث الهوى على باعث الدين والحق . ولا يقدم على هذا إلا جاهل غبى ، لا عالم ذكى .

من أجل هذا لازم القرآن بين عمل السوء والجهالة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ (٣) .

---

(١) الأعراف : ١٣٨ ، ١٣٩ (٢) الأنعام : ١١١ (٣) النساء : ١٧

وقال سبحانه : ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ذنب المؤمن جهل منه .

وقال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ : أن كل شىء عُصِىَ الله فيه فهو جهالة .

وقال السدّى : كل مَن عصى الله فهو جاهل .

وقال سفيان الثورى : كل مَن عمل ذنباً من خلق الله فهو جاهل ، كان جاهلاً أو عالماً . إن كان عالماً فمَن أجهل منه ؟ وإن كان جاهلاً فمثل ذلك .

وقد نقلنا عن ابن القيم قوله : « ويدل على صحة هذا : أنه مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد ، فإنه لو رأى صبياً يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة ، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ، ورؤيته له ، وعقابه على الذنب ، وتحريمه له ، وسوء عاقبته ؟ ! فلا بد من غفلة القلب عن هذا العلم وغيبته عنه . فحينئذ يكون وقوعه فى المعصية صادراً عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم . والذنب محفوف بجهلين : جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه . وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه ، وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة . فما عُصِىَ الله إلا بالجهل ، وما أُطيع إلا بالعلم » (٣) .

* *

---

(١) الأنعام : ٥٤ (٢) النحل : ١١٩

(٣) مفتاح دار السعادة : ١/ ٩٠

● **الجهل المركَّب** :

وشر أنواع الجهل هو : الجهل المركَّب ، وهو الذى يجهل صاحبه أنه يجهل ، لأنه لا يسعى إلى التعلم ، وهو يعتقد فى نفسه أنه عالِم .

ولهذا سُئل بعض العارفين : ما شر ما يُصاب به الإنسان ؟ فقال : الجهل بالله تعالى . فقيل له : وهل هناك شر من هذا ؟ قال : نعم ، الجهل بالجهل !

وفى هذا يقول الشاعر :

إذا كنت لا تدرى بأنك جاهـــل فمن لى بأن تدرى بأنك لا تدرى ؟!

ويقول الخليل بن أحمد : « الناس أربعة : رجل يدرى ، ويدرى أنه يدرى ، فهذا عالِم فاتبعوه .

ورجل يدرى ، ولا يدرى أنه يدرى ، فهذا نائم فأيقظوه .

ورجل لا يدرى ، ويدرى أنه لا يدرى ، فهذا جاهل فعلِّموه .

ورجل لا يدرى ، ولا يدرى أنه لا يدرى ، فهذا ضال فارفضوه » .

وقد وصف القرآن المنافقين بهذا النوع من الجهل ، حين قال فى شأنهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

كما وصف القرآن بعض أصناف الكفار بهذا الجهل فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ١١ - ١٣ (٢) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ (١) .

ومن أجل ذلك كان المبتدع شراً من العاصى ، وكانت البدعة شراً من المعصية ؛ لأن العاصى يعلم أنه عاص لربه ، مخالف لأمره ، فيُرجى أن يتوب . أما المبتدع فهو يتقرَّب إلى الله ببدعته ، فكيف يُرجى أن يتوب منها ؟ وهذا هو الخطر .

* * *

(١) فاطر : ٨

العلم المذموم فى القرآن

● العلم الذى يضر ولا ينفع « السحر » :

العلم المذموم فى القرآن يأخذ عدة صور ، أُولاها : العلم الضار .

فقد وجَّه القرآن « الطاقة العقلية » لدى الإنسان إلى تحصيل العلوم النافعة ، والمعارف المفيدة له وللمجتمع من حوله ، وحفزه على طلب العلم النافع بأعظم الحوافز المرغِّبة والمرهِّبة والباعثة .

ولم يقبل أن تُوَجَّه هذه الطاقة إلى العلوم التى لا تجنى من ورائها ثمرة للفرد ولا للأُمة . وذلك مثل « علم السحر » .

بل بيَّن القرآن : أن تعلم هذا العلم يضر ولا ينفع ، فشأنه أن يُستخدم فى الإفساد وتقطيع الروابط بين الناس ، كالتفريق بين المرء وزوجه ، وهو مما يبغضه الله تعالى ، ويحبه الشيطان ، ولهذا كان من كبائر الإثم .

عرض القرآن لهذه القضية فى قصة هاروت وماروت فى سورة البقرة ، فقال تعالى فى شأن اليهود وما ارتكبوه من ألوان الانحراف والفساد :

﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ١٠٢

ولقد اختلف علماء المسلمين فى حقيقة السحر ما هى : أهو أمر حقيقى مؤثر فى الواقع ؟ أم هو مجرد إيهام وتخييل وسحر للأعين فحسب ؟

ذهب المعتزلة إلى الثانى ، مستدلّين بما جاء فى القرآن فى قصة موسى وسَحَرة فرعون ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ، فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ (٢) .

وذهب أهل السُّنَّة إلى الرأى الأول ، وأن للسحر حقيقة ، وأن له تأثيراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ (٤)

ولهذا أيضاً أُمرنا بالاستعاذة من شر السَحَرة الذين ينفثون فى العُقَد ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ ..... ﴾ (٥) .

وأيّاً كانت ماهية السحر وحقيقته ، فهو علم يضر ولا ينفع ، ولا يجوز للمسلم تضييع وقته وجهده فى تعلمه . فما أحوج هذا الجهد وهذا الوقت أن يُنفقا فى تحصيل ما ينفع من العلم .

* *

● التنجيم شُعْبة من السحر :

وقد ورد فى الحديث النبوى اعتبار « التنجيم » شُعْبة من السحر ، وهو الذى يقوم على التنبؤ بالغيب بواسطة النجوم ، وادعاء قراءة المستقبل من خلالها .

---

(١) الأعراف : ١١٦ (٢) طه : ٦٦ (٣) البقرة : ١٠٢

(٤) البقرة : ١٠٢ (٥) الفلق : ١ - ٤

فقد روى ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : « مَن اقتبس علماً من النجوم اقتبس شُعْبة من السحر ، زاد ما زاد » (١) .

قال الإمام الخطابى فى « معالم السُنن » : « علم النجوم المنهى عنه هو : ما يدَّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التى لم تقع ، وستقع فى مستقبل الزمان ، كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح ، ومجىء المطر ، وظهور الحر والبرد ، وتغير الأسعار ، وما كان فى معانيها من الأُمور ، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب فى مجاريها ، وباجتماعها واقترانها ، ويدَّعون لها تأثيراً فى السُّفْليات ، وأنها تتصرف على أحكامها ، وتجرى على قضايا موجباتها .

وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطٍ لعلم استأثر الله سبحانه به . لا يعلم الغيب أحد سواه .

فأما علم النجوم الذى يُدرك من طريق المشاهدة والحس ، كالذى يُعرف به الزوال ، ويُعلم به جهة القِبْلة . فإنه غير داخل فيما نهى عنه .

وذلك : أن معرفة رَصْد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس بعدُ صاعدةٌ نحو وسط السماء من الأُفق الشرقى . وإذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأُفق الغربى .

وهذا علم يصح دَرْكه من جهة المشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التى يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصده .

وأما ما يُستدل به من جهة النجوم على جهة القِبْلة : فإنما هى كواكب

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسند ابن عباس برقم (٢٠٠٠) وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، وأبو داود فى الطب (٣٩٠٥) ، وابن ماجه فى الأدب (٣٧٢٦) ، وصحَّحه النووى فى « رياض الصالحين » ، والذهبى فى « الكبائر » . انظر : « فيض القدير » (٦/ ٨٠).

أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك فى عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها ، وصدقهم فيما أخبروا به عنها . مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ، ويشاهدوها فى حال الغيبة عنها فكان إدراكهم : الدلالة عنها بالمعاينة . وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم ، إذ كانوا غير متهمين فى دينهم ، ولا مقصرين فى معرفتهم » (١) .

ولا يدخل فى علم « التنجيم » هذا : ما يُذاع فى نشرات الأخبار من هيئات الأرصاد الجوية فى الأقطار المختلفة ، من توقع حركة الرياح ، ونزول الأمطار أو عدمها ، ودرجات الحرارة والبرودة ، ونحو ذلك ، لأن هذا ليس من التنبؤ بالغيب المطلق ، الذى لا يعلمه إلا الله تعالى ، بل هو مبنى على مشاهدات وتجارب معروفة ، مبنية على سنن الله فى الكون ، وشبكه الأسباب والمسببات . وينبغى أن يكون ذلك على سبيل التوقع ، لا على سبيل الجزم والقطع ، فقد يُحْدث الله تعالى ما ليس فى الحسبان . ولهذا يختم كثير من المؤمنين من مقدمى نشرات الأخبار الجوية حديثهم بقولهم : هذا والعلم عند الله تعالى .

فهذا ليس من عمل المنجمين الذين قيل فيهم : « كذب المنجمون ولو صدقوا » !

وكذلك ليس من علم التنجيم ولا من عمل المنجمين : ما يتعلق بـ « علم الفلك » الذى كان للمسلمين فيه يد طولى ، أيام ازدهار الحضارة الإسلامية ، والذى استبحر فى عصرنا ، ووصل إلى غاية من الدقة حتى سمعت من بعض علمائه : أن احتمال الخطأ فيه ١ : ١٠٠ر٠٠٠ (واحد إلى مائة ألف) من الثانية ، وعلى أساسه وصل الإنسان إلى القمر ، وغزا الكواكب .

---

(١) انظر : معالم السنن للخطابى ، مع مختصر المنذرى وتهذيب ابن القيم - فى شرح الحديث (٣٧٥٤) : ٥/ ٣٧١ ، ٣٧٢ - طبعة المكتبة الأثرية بباكستان ، المصوَّرة عن طبعة السُّنَّة المحمدية بالقاهرة .

والقرآن الكريم يشير إلى هذا العلم فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

أعتقد أن القوم « الذين يعلمون » هنا ، والذين فصَّل الله لهم الآيات : هم الذين يعلمون علم الفلك .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ (٣) .

* *

● **العلم الذى يكتمه صاحبه عن أهله :**

وهناك صور أُخرى للعلم الذى ذمَّه القرآن ، وذمَّ أهله . منها :

صورة العلم الذى يكتمه صاحبه عن أهله ، كما قال تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (٤) . .

وقال سبحانه فى شأن اليهود : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) يونس : ٥ (٢) الأنعام : ٩٧ (٣) الإسراء : ١٢

(٤) آل عمران : ١٨٧ (٥) البقرة : ١٤٦

وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ * إِلا الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

* *

● العلم الذى لا يعمل به صاحبه :

صورة العلم الذى لا يعمل به صاحبه ، ولا يؤثر فى توجهه وسلوكه ، بل يعمل بعكسه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ، ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

فانظر كيف صوَّر القرآن هذا النموذج ، الذى يؤتَى آيات الله ، فينسلخ منها ، هكذا كما ينسلخ الحيوان من جلده ، فيبقى مكشوفاً ، أو كما ينسلخ الإنسان من ثوبه ، فيصبح عارياً مفضوحاً ، وكان يمكن أن ترتفع به آيات الله التى عنده وأن ترقى به ويرقى بها إلى القمة ، ولكنه هبط إلى أسفل ، إلى الطين ، وأخلد إلى الأرض ، واتبع داعية الهوى لا داعية الدين والحكمة .

* *

● العلم المادى الذى يعارض علم النبوة :

صورة العلم المادى الذى يغتر به صاحبه ، ويحجبه عن الإيمان بالوحى ، واتباع الرُّسُل ، فيهلك مع الهالكين .

---

(١) البقرة : ١٥٩ ، ١٦٠ (٢) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

وفى هذا جاء قول الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِى الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) .

ففرح هؤلاء بما عندهم من العلم المادى أعماهم عن علم النبوة وأنوار الوحى ، واستهزأوا به ، فحاق بهم عاقبة استهزائهم .

* *

● العلم بظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة :

صورة العلم الذى يشغل صاحبه بظاهر الحياة الدنيا ، وينسيه الدار الآخرة ، وهذا العلم اعتبره القرآن كلا علم ، أى اعتبره جهلاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٢) .

فانظر - يارعاك الله - كيف وصفهم بأنهم لا يعلمون . ثم أثبت لهم أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، مع الغفلة التامة عن الآخرة ، ليدلنا أن هذا العلم والعدم سواء .

* *

● العلم الذى يغر صاحبه بالثروة أو السُلْطة :

ومن ذلك : العلم الذى يغر صاحبه بما أوتى من مال وثروة ، وينسى فضل الله عليه ، الذى رزقه هذا المال ، وسخَّره لمنفعته .

وذلك مثل قارون الذى آتاه الله من الكنوز ما آتاه ، ونصحه قومه جملة

---

(١) غافر : ٨٢ ، ٨٣ (٢) الروم : ٦ ، ٧

نصائح ثمينة ليعمل بها فى نفسه وماله ، ولكنه ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِى ﴾ (١) .

وكان تعقيب القرآن عليه : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ (٢) ؛ يعنى : ألم يصل إلى علمه الذى يدَّعيه ما حدث للقرون من قبله وما نزل بهم من عذاب الله وبأسه ، حتى هلكوا وبادوا ، وقد كانوا أشد منه قوة وأكثر عددا ؟!

* *

● العلم الذى يؤدى إلى اختلاف الكلمة بغياً بين أهله :

ومن ذلك : العلم الذى يؤدى بأهله إلى أن تختلف كلمتهم ، ويتفرق صفهم ، الذى كان واحداً ، مثل بنى إسرائيل الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة ، ولكن العلم الذى آتاهم الله لم يجمع كلمتهم ، وإنما اختلفوا من بعده ، بغياً بينهم وتحاسداً . يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ ، فَمَا اخْتَلَفُواْ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٤) .

ويقول : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ (٥) .

* * *

---

(١) القصص : ٧٨ (٢) القصص : ٧٨ (٣) الجاثية : ١٦ ، ١٧
(٤) الشورى : ١٤ (٥) آل عمران : ١٩